نحو فكر نقدي

قضايا في الفلسفة والماركسية

تأليف
محمد عامر

تقديم
مراد وهبه

١٩٧٨





نحو فكر نقدى :

قضايا فى الفلسفة والماركسية

نحو فكر نقدي

قضايا في الفلسفة والماركسية

تأليف

محمد عامر



تقديم

مراد وهبه

١٩٧٨



هـذه دعوة الى النقـاش • يمـكن اعتبـار كل ما يقـدم هنـا ، مجـرد مادة تسـاعد على النقـاش ، والنقـاش بدوره يطورها ويعمقهـا ويـثريهـا •

الفهـــــرس

صفحـة

تقـديم ـ بقلم مراد وهبـه ٩

١ ـ لمـاذا الفلسفة ؟ ١١

٢ ـ لمـاذا هـذه الفلسفة أو تلك ؟ ١٦

٣ ـ ماذا نقصـد بالمـاركسية ؟ ٢٢

٤ ـ ماركس والمـاركسية ٢٥

٥ ـ الفلسفة المـاركسية وفريدريك انجلز ٣٠

٦ ـ الفلسفة المـاركسية والمعايير الخمسة ٣٣

٧ ـ الديالكتيك والتناقض ٣٨

٨ ـ انجـلز والصـيرورة ٤٥

٩ ـ الاستعمار وحق تقرير المصير : من ماركس وانجـلز الى لينين وستالين ٥٠

١٠ ـ الحزب والشعب : من ستالين الى ماو تسى تونـج . ٦٦

١١ ـ الكمو الكيف والمنظومة : من انجـلز الى أوسكار لانج ٨٤

الهـــوامش ٨٨

ثبت المراجـع ١٠٣

تقـــديم

اذا كان عنوان هـذا الكتاب « نحو فكر نقدى » ، فعنوان هـذا التقـديم « نحو انطباع نقـدى » • وهو عنوان ينطوى على تناقض ، ذلك أن الانطباع يتسم بأنه مباشر فى حين أن النقد يتصف بأنه غـير مباشر • ومع ذلك فثمـة تبرير لهـذا التناقض • والتبرير المنشود مردود الى طبيعـة التقـديم • فمن شأن التقديم أن يكون « فاتحـة شهية » لقراءة الكتاب ، أى « مدخلا » • والمدخل مجرد بداية • وثمـة قول مأثور أن لكل بداية نهاية • بيـد أن مفهوم المدخل لا يقبـل هذا القول المـأثور ، لأن قبوله له يحيله من مجرد مدخل لكتاب الى كتاب •

التقـديم اذن من حيث هو مدخل هو بالضرورة مجرد انطباع ، ولكنه انطباع يرقى الى مستوى التقويم ، لأنه يرمز الى « الذات » • فهو اذن نقـــدى •

والسؤال الآن :

ما هو هـذا الانطبـاع ؟ •

صاحب هذا الكتاب دقيق اللفظ ، واضح المعنى ، ولهـذا تأتى النقلة منطقية من فقرة الى أخرى •

متخصص فى الرياضيات وكتابه فى الفلسفة فيذكرنا بعبـــارة أفلاطون عند مدخل الاكاديمية : «لا يدخل هنا الا من تعلم الهندسة» •

واهتمامه بقضايا الفلسفة يرقى الى حد « الهم » وهو لهذا يؤثر

هنا بحث الماركسية على غيرها من المباحث الفلسفية لانها تنشغل بتغيير العالم وليس مجرد تفسيره ٠

وتناول المؤلف للماركسية يتم فى ضوء النسق المغلق والنسق المفتوح ، وهو تناول محبب الى نفسى لانه محور تفكيرى فيما أصدر من مؤلفات ٠

والمؤلف يثير قضية الماركسية المفتوحة فى مقابل الماركسية المغلقة ، فيشدد على ضرورة تطوير الماركسية بسبب تطور العلم والفلسفة والمجتمع ٠

ومع ذلك فهو يتناول هذه القضية الهامة فى تواضع ، اذ هو يحصرها فى شخصيتين هما ستالين وماوتسى تونج ، وفى نصوص مختارة يعوزها مزيد من الاحكام والتأويل فى ضوء ما أثاره من قضايا فلسفية فى النصف الاول من كتابه ٠

أما بعد ٠٠

فاذا كان هذا التقديم « فاتحة شهية » فأنت مقبل على التهام الكتاب فى وجبة واحدة ٠ ومع ذلك فهذه الوجبة لن تكون كافية ، اذا كانت الغاية منها اتمام الشهية ٠

ولهذا فالوجبة الثانية مطلوبة ولازمة ،
وللمؤلف تحية شكر اذا استجاب ٠

مراد وهبه

١ ـ لمـــاذا الفلسفة(*) ؟

اذا بحثنا فى المعجم الوسيط(١) عن معنى كلمــة « الضــأن » وجـــدنا :

الضأن : ذو الصوف من الغنم ٠

ثم اذا بحثنا عن معنى كلمة « الغنم » وجدنا :

الغنم : القطيع من المعــز والضأن ٠

ومن ثم فالمعجم يدور بنا ٠ لكى نعرف معنى « الضأن » يلزم أن نعرف معنى « الغنم » ولكى نعوف معنى « الغنم » يلزم أن نعــرف معنى « الضأن » ٠

هــل يمكن تجنب هــذا الدور ؟ لنفرض أن كلمة « الضــأن » مشروحة فى المعجم كمــا هو مذكور عاليـــه ٠ اذا أردنا تجنب الدور ، فعلينــا أن نختار لــكل من الــكلمات « ذو » ، « الصوف » ، « من » « الغنم » أحد بديلين :

(*) نشر هذا الفصل والذى يليه (بشىء من التعديل) فى ملحق الفلسفة والعلم بمجــلة الطليعــة ـ ديسمبر ١٩٧٦ ، تحت عنوان : مدخــل الى الفلسفة ٠ قد يجد القارىء غــير المتمرس بالفلسفة بعض الصعوبة فى قراءة هــذين الفصلين ٠ كمــا أن القارىء غــير المتمرس بالمنطــق والرياضيات قــد يجــد بعض الصعوبة فى قراءة الفصــل السابع ٠ لكنى أرجو الا يثنى هذا أحدا عن مواصلة القراءة ٠

(أ) ألا ترد بين الكلمات المشروحة فى المعجم ٠

(ب) أن تشرح فى المعجم ، على ألا يرد فى شرحها ، كلمات ترد هى فى شروحها ، أو فى شروح كلمات واردة فى شرحها أو ٠٠٠ ٠

وعلى هذا اذا شرعنا تأليف معجم علينا أن نختار بين ثلاثة بدائل أساسية :

١ ـ أن نستخدم فى شروحنا كلمات لا نشرحها فى المعجم ٠ (سنقول على هذه الكلمات أنها أولية) ٠

٢ ـ أن ندور ٠

٣ ـ ألا ننتهى من تأليف المعجم أبدا ٠

ويمكن لكل منا أن يتحقق من هذا ، بفحص أى معجم يشاء ، فى أى لغة يشاء فانه سيجد فيه دور أو كلمات أولية ٠

ليس هذا الامر قاصرا على اللغات الطبيعية ومعاجمها ٠ ففى النظريات المختلفة (فى المنطق أو الرياضيات أو العلوم الطبيعية ، أو العلوم الانسانية ، أو الفلسفة ، أو غير ذلك) ، ترد كلمات (أو رموز) ٠ وكل محاولة لتعريف هذه الكلمات ، تواجه بالاختيار الثلاثى : الكلمات الاولية (تسمى فى هذا المقام الكلمات غير المعرفة) ـ الدور ـ ألا ننتهى من محاولة التعريف أبدا ٠

والامر فى النظريات يتعدى التعريف الى البرهان (النظرى)٠ فلكى نبرهن(٢) على جملة ما نحتاج الى جمل (حاول أن تستعيد براهين الهندسة التى درستها فى المدرسة الاعدادية) ولكى نبرهن على كل من هذه الجمل نحتاج الى جمل ٠٠٠ وهكذا نجد أنفسنا مواجهين

بالاختيار الثلاثى : الجمل الاولية : (تسمى أيضا المصادرات أو المسلمات أو الفروض) ـ الدور ـ ألا تنتهى محاولة البرهان أبدا ٠

غير أن البرهان ليس مجرد تسلسل من الجمل ٠ فعندما نقول فى برهان ما :

اذن : كذا وكذا ٠

نقصد أن الجملة « كذا وكذا » مستنتجة من (بعض) الجمل التى تسبقها فى البرهان ٠ هذا الاستنتاج يستند الى قواعد للاستنتاج ٠ اعتماد قاعدة ما من قواعد الاستنتاج يحتاج الى قواعد للاستنتاج ٠ واعتماد كل من هذه الاخيرة يحتاج الى قواعد للاستنتاج ، ٠٠٠ وهكذا نجد أنفسنا مواجهين مرة أخرى بالاختيار الثلاثى : قواعد الاستنتاج الاولية ـ الدور ـ ألا تنتهى محاولة الاعتماد أبدا ٠

لعله لا خلاف على أن من المرغوب فيه أن نتجنب فى نظرياتنا الدور واللا منتهيات ٠ ومن السهل أن نرى أن هذا ممكن اذا ما قبلنا ما يكفى فى الاوليات : كلمات ، جمل ، قواعد استنتاج ، ٠٠٠ أى أنه من الممكن أن نبنى كل نظرية على بعض الاوليات المحددة (بقدر الامكان) كأساس وحيد لهذا البناء٠ أول محاولة عرفتها البشرية فى هذا الاتجاه كانت محاولة اقليدس بناء الهندسة الاقليدية فى كتابه « المبادىء » ٠ هذه المحاولة ـ على عظمتها ـ لم تنجح نجاحا كاملا (٣) ٠ وكان على البشرية أن تبذل جهدا كبيرا ، على امتداد ما يزيد على ألفى عام ، حتى تكلل المحاولة ، التى بدأها أقليدس ، بالنجاح منذ أقل من مائة عام فقط(٤) ٠

اذن فبناء النظريات على أساس الاوليات ليس بالامر السهل ، وأكثر النظريات المعاصرة (حتى فى العلوم) لا تتمتع ـ حتى الآن(٥)ـ

بمثل هذه الابنية • محاولة اقامة هـذه الابنية ستساعدنا كثـيرا فى التعرف على ما فى نظرياتنا من ثغـرات • لكن نجاح المحـاولة ليس خاتمة المطاف • فالاوليات ستظل فى حاجة الى بحث قبل وأثناء وبعـد نجاح المحاولة • وكلما كانت هناك نظريات متطورة لهـذه الاوليات (أو بعضها) ، ساعد هذا على تطوير نظريتنا الاصلية • مثلا ، يمكن اعتبار الاعداد أوليات فى أية نظرية اقتصادية • نحن نعرف أن هناك نظرية للاعداد • كلما تطورت نظرية الاعداد هذه أتاح هذا فرصـــة أفضل لتطوير النظرية الاقتصادية •

اذا أخذنا فى الاعتبار أن عدد ما لدينا من نظريات (فى أى وقت) محـدود ، واذا ما أردنا أن نتجنب الدور ، فانه سيكون لدينا دائمـا نظرية ما لا تقع بعض أولياتها فى أية نظرية • البحث فى هذه الاوليات ـ فى مراحله الاولى ـ بحث فلسفى • قـد يفضى هذا البحث الى ميلاد نظرية جديدة•وسواء أفضى أم لم يفض فهو يسهم فى تطوير نظريتنا الاصليـــة •

كمثال محدد ، لنأخذ أية نظرية علمية • هذه النظرية تقوم على المنهج العلمى • لـكن ليس لدينا ـ حتى الآن(٥) ـ نظـرية مرضية للمنهج العلمى • والبحث فى هذا المنهج لا يزال حتى الآن بحثا فلسفيا •

مثال آخر : يعتبر المنطق من أوليات أية نظرية رياضية • أفضى البحث الفلسفى فى المنطق على مر ما يزيد على ألفى عام الى نظريات المنطق الرياضى ، الذى انفصل منذ حوالى مائة عام عن الفلسفة وصار فرعا مستقلا يؤثر فى الرياضيات تأثيرا كبيرا • لكن المنطق الرياضى ليس بلا مشكلات فلسفية •

من هـذا نخلص الى أنه لا غنى عن الفلسفة لتطوير النظـريات (بما فى ذلك العلمية منها) ، وتوليد نظريات جديدة (فى العلوم وغيرها)•

لكن ما جاء هنا ليس الداعى الوحيد للفلسفة كما أن ما جاء هنا ليس العامل الوحيد فى توليد النظريات أوتطويرها • أما عن لماذا اخترنا هذا العرض ، ما دام ليس الممكن الوحيـد ؟ فلكى نوضح أن العلم لا غنى له عن الفلسفة مواجهين بذلك الدعاوى(٦) التى تحاول الغاء الفلسفة لصالح العلم ، مع اضفاء هالة على هــذا الاخير تسهم فى اغترابه عن الانسان صانعه •

٢ ــ لمــــاذا هـــذه الفلسفة أو تـــلك ؟

مادام للفلسفة هـــذا الدور الاساسى فى الفـكر ، فمن المهم أن نسأل : لماذا نقبل (أو نرفض) هذه الفلسفة أو تلك ؟ من الواضح أن هذا سؤال فلسفىٰ وبالتالى فالاجابة عليه (بل أخذه فى الاعتبار أصلا) تتضمن اتجاها فلسفيا • ليس هذا وحسب ، بل ان سؤالنا يقع فى قاع القاع ولذا فالاجابة عليه اختيارية (بمعنى ما) أو على الاقل فيها شىء من الاختيار •

من الممـكن أن يتخـــذ شخص ما ، فلسفــة ما ، كبـــداية البدايات بالنسبة اليه مسقطا سؤالنا أو آخذا أياه فى الاعتبار • ومن الممكن أن يبدأ بداية أكثر تواضعا منهذا ، بانيا عليها فلسفته ، الثابتة أو المتغيرة ، أيا كانت الحال • من المفيد أن ندرك أن النقاش مع هــذا الشخص غير ممكن الا اذا كان مســتندا الى (بعض) ما يقبله ســواء أكان من الاوليات أو مما يبنيه عليها • فمثلا من العبث أن تحاول أن تثبت لشخص ما يبدأ بقبول فلسفة ما فساد فلسفته ، دون أن تنطلق من (بعض أجزاء) هذه الفلسفة أو ما يبنى عليها • لان البــديل هو ألا يقوم الاثبات على أساس أو أن يقوم على أساس لا يقبله الشخص المعنى بالامر • ادراكنا هذا يوفر علينا جهدا كبيرا يبذل فى مناقشات طويلة لا طائل من ورائها ، كما أنه يساعدنا على أن نحرر أنفسنا من رذيلة التعصب •

للمفكر الفرد الذى لا يهتم بالآخرين أن يجيب على سؤالنا أيــة اجابة يختار(٧) • أما الذى يهتم بالآخرين فعليه أن يبـــدأ بأشياء بعضها (على الاقل) مقبول لديهم • وليس معنى هذا أن عليـــه أن

يلتزم تماما بثقافة العصر والافكار السائدة فيه لا يخرج عليهـــا . فمن الممكن أن يبدأ بفكرة (أو قليل من الافكار) مقبولة لدى من يهمـه أمرهم ، ويبنى عليها بناء مخالفا لمـا هو شائع . ثم انطلاقا من هذه الارضية المشتركة يجرى معهم حوارا(٨) يكون من شأنه تغيير وجهات النظـــر .

على ضوء هـذا سنقترح اجابة جزئية على سؤالنا ، محـاولين الاسترشاد(٩) بالجانب الانسانى والجانب المستنير لحضارة عصرنا. اجابتنا الجزئية ترتكز على معايير خمسة(١٠) ـ من الممكن أن يضاف اليهـا ـ هى :

١ ـ الانسانيـــة .

٢ ـ التآلف الذاتى (أو الاتساق الذاتى) .

٣ ـ الانعكاس الذاتى .

٤ ـ العـــلمية .

٥ ـ الصـــيرورة .

نقاش هذه المعايير وارد ، لكننا لن نفيض فيه ، وسنكتفى بقليل من الايضاحات والتعليقـات .

نقصد بالانسانية أن تكون الفلسفة فى خـــدمة الانسان . وأن تختار ما يفيده ، ما أمكن ذلك . ألا يوقعنا هذا فى البراجماتية؟ بمعنى ما، بلى ! لكن لا بأس من (بل لعله لا غنى عن) بعض البراجماتية فى مثل هذا المستوى الاساسى . وجـدير بالذكر هنا أن البعض يعتبرون أن ماركس هو أول البراجماتيين ، لانه أول من وضع على عاتق الفلسفة مهمة تغيير العالم وليس مجرد تفسيره .

ماذا نقصد بالتآلف الذاتى ؟ يقال لنظرية ما ، فلسفية أو غير فلسفية ، انها متآلفة ذاتيا (أو غير متناقضة منطقيا)(١١) اذا لم تكن هناك جملة ، هى ونفيها مبرهنتان ، أو يمكن برهنتهما ، فى هـــذه النظرية٠ولقد أوضح المناطقة أنه اذا كانت نظرية ما غير متآلفة ذاتيا، أى اذا كانت هذه النظرية متناقضة منطقيا ، فانـــه يمكننا أن نبرهن فيها أية جملة نشاء ٠ وبالتالى ، يمكننا أن نبرهن فيها نفى أية جملة نشـــاء ٠ واذن فيمكننا أن نصـــل فيها الى أية نتائج مهمـا كانت متعارضـــة ٠

مثلا ، اذا كانت هذه النظرية المتناقضة منطقيا متعلقة بهندســة البناء ، فانه يمكننا أن نثبت فيها أن نسبة واحد الى واحد هى أفضل نسبة لخلط الاسمنت بالرمل ، كما يمكننا أن نثبت فيهـا نفى ذلك ٠ أيضا يمكننا أن نثبت فيها أن أفضل نسبة هى واحد الى اثنين ٠ كما يمكننا أن نثبت فيهـــا نفى ذلك ٠ واذا ما قبلنا نظـــرية سياسية متناقضة منطقيا ، فستختفى (نظـريا) جميع الصراعات السياسية دون عظيم جهد ٠ لانه سيكون من السهل اثبات امكان تحقق رغبات كافة أطراف أى صراع ، فى آن واحد ، مهما كانت هذه الرغبـــات متعارضـــة !

وهكذا نرى أن التناقض المنطقى يفقد النظرية أهميتها النظرية وقيمتها العملية ٠ لذا فالتآف الذاتى مطلب عام علينا أن نسعى اليـــه فى النظريات الفلسفية ، وغير الفلسفية ٠ ولقد بينت ابحاث المنطق الرياضى فى الثلاثينيات من قرننا هذا أن اثبات أن نظرية ما متآلفــة ذاتيا ، ليس بالامر الهـــين ٠ وهو يتطلب فى كثير من الاحوال الهامة نظـرية أقوى من تلك موضع النظر ٠ وبالتالى أكثر عـرضة للتناقض منها ٠ لذا علينا أن نتواضع فى معيارنا ٠ ليس ما نطلب هو أن يكون لدينا برهان على أن فلسفتنا متآلفة ذاتيا ، بل ألا يكون فيها تناقض

منطقى مكتشف · وعليه فاكتشاف تناقض منطقى سبب كاف لاعادة النظر فيها ·

نقصد بالانعكاس الذاتى أن تنجح الفلسفة فيما تضعه هى نفسها من اختبارات ، وأن تكون مقبولة تبعا لما تقبله هى نفسها من معايير · بعض الفلسفات تعاير غيرها بهذه المعايير ، وتنسى نفسها !

فى العلوم الاستنتاجية ، كالرياضيات مثلا ، لا نطلب من نظرياتنا أن تكون مرتبطة بالواقع · أما فى العلوم الاستقرائية ، كالفزياء مثلا ، فهذا الارتباط مطلوب ، فماذا عن الفلسفة ؟ بوصفها اطار عام ، نرى أن عليها أن ترتبط بالواقع · لكن ليس مباشرة · وانما عن طريق العلوم الاستقرائية · وبصفة عامة ، نرى أن على الفلسفة أن تتفاعل مع العلوم ، استقرائية كانت أم استنتاجية · ولذا اقترحنا العلمية كأحد معايير الفلسفة · وهذا يعنى أن على الفلسفة :

(أ) توضيح الاسس الفلسفية للعلوم بما يسهم فى تطويرها المستمر ·

(ب) الاسهام فى توليد علوم جديدة ·

(جـ) الاسهام فى الربط بين مختلف العلوم ·

(د) الاستفادة من منجزات العلم فى التعميمات الفلسفية وغيرها · والاستعداد للتطور كلما دعى تطور العلم الى ذلك ·

(هـ) احترام منجزات العلم · أو بكلمات أخرى ، أن تكون الفلسفة متآلفة مع العلم ·

أما الصيرورة فنقصد بها أن تكون الفلسفة متطورة غير جامدة · معاييرنا الخمسة ليست منعزلة ، بعضها عن البعض الآخر ·

فعلمية الفلسفة مثـــلا ليست منفصلة عن انسانيتها • فمن الممكن أن نستند فى قبولنا بعض الاوليـــات الفلسفية للعلم ، كوجود العـــالم الخارجى أو الاحداث الخارجية ، الى أن هذا يجعل العلم ممكنا ، والعلم يفيـد الانسان •

كما أن علمية الفلسفة تدعو الى الصيرورة • ليس فقط لاننـا نلاحظ أن الموجودات صائرة ، وأن أشياء كالكائنات الحية على الارض لم تكن موجودة فى أحقاب قديمة ، وصارت موجودة منذ فترة • بل أيضا لان العلم صائر متطور • وهـــذا يدعونا الى أن نتوقع ، أن على الفلسفة أن تصير وتتطور ، اذا أرادت أن تظل علمية (انظر «د» عالية) •

لكن كيف لفلسفة ما أن تتطور ، والمفروض فيها أنها وسعت كل شىء ، من الانسان الى الطبيعة الى ما وراء الطبيعة الى غـــير ذلك ، واضعة اياه فى موضعه الصحيح ، موضحة كل الاساسيات والعموميات والمناهج والمعايير التى ليس على النـاس الا أن يتبعوها للوصول الى الفرعيات والخصوصيات ، ببساطة علينا أن نتخلص من هـذا الفهم للفلسفة • لكن ، ما البديل ، اذا أردنا للفلسفة الا تتحول الى بضعـة ملاحظات متناثرة هنا وهناك لا يجمعها نسق نظرى واحد ؟ قـد يرى البعض البديل فى أن تتخلى الفلسفة عن «المذهب» وتكتفى بـ «المنهج» ، فمن الممكن ألا يتعارض ثبات المنهج مع تغير النظريات التى نصل اليها على أساسه • ألم تتغير الفيزياء من النظرية الكلاسيكية الى نظرية الكم مع عدم تغير المنهج العلمى ؟ •

هذا حل غير مقبول ، فالمنهج أيضا اذا أردنا أن نعرضه فى نسق نظرى واضح ، سيكون له أولياته (انظر الفصل الاول) ، وبالتالى فان البحث (الفلسفى) فيها قد يفضى الى تطويره • بل لعله من التسرع أن نقول أن المنهج العلمى لم يتغـير • فعدم الوضوح النظـرى الكافى للمنهج العلمى قد يخفى تطورا غير ملحوظ حتى الآن •

البديل الذى نطرحه هو ألا تتخلى الفلسفة عن المذهب (نفضل أن نقول : النظرية أو النسق) • عليها فقط أن تدرك أنه من الممكن ألا يكون نهائيا ، وأن المزيد من البحث والدراسة لاولياته ، وما بنى عليها قد تفضى بنا الى نسق جديد ••• وهكذا •

تحذير : ليس البديل لقبول فلسفة ما (تبعا لهذه المعايير أو غيرها) أن نتجاهلها ونعرض عنها تماما • فقد يكون من الممكن تطويرها لتصير مقبولة • هذا هام ، لانه حتى اذا كانت فلسفة ما (أو طور ما لهذه الفلسفة) مقبولة اليوم فقد تصبح غير مقبولة غدا • هل ننبذها أم نحاول تطويرها ؟ أيضا من الممكن أن نجد فى تلك الفلسفة غير المقبولة كثيرا من الافكار الاصيلة الخصبة الثرية الصالحة لتطعيم فلسفات أخرى ايجابا أو سلبا (أى بنقض تلك الافكار ودحضها) أو غير ذلك • بهذا تتطور الفلسفة وتثرى الاتجاهات الفلسفية بعضها بعضا • ولعل دراسة تاريخ الفلسفة تلقى مزيدا من الضوء على هذا •

٣ ـ ماذا نقصد بالماركسية ؟

الماركسية ـ فى نظرنا ـ لا توجد فى أعمال كارل ماركس فقط ، ولا فى أعمال ماركس وانجلز وحدهما ، وانما توجد فى أعمالهما ومن جاء بعدهما من الماركسيين • بصياغة أفضل : الماركسية فى عصر ما توجد فى أعمال ماركسى ذلك العصر ومن سبقهم • هذا والا حرمنا الماركسية من الصيرورة • وجهة النظر هذه ـ بالرغم من أننا سنجد لها بعد قليل دعما قويا من أحد مؤسسى الماركسية ـ تجرنا الى مشكلات كبيرة • فهل نعتبر من الماركسية كل الاعمال التى يدعى أصحابها الماركسية ؟ واذا كان الجواب بالنفى ـ وهذا ما نراه والا كان فى الماركسية تناقض منطقى واضح ـ فكيف نفرق بين مايعتبر ماركسيا ومالا يعتبر كذلك؟ أم أن المخرج يكون عن طريق قبول تعدد الماركسيات ، فى آن واحد ؟

الذى يزيد من خطورة هذه المشكلات ، أن الماركسية ليست فلسفة خالصة•كما أنها ليست مجرد فكر يحوى فلسفة وانسانيات وعلوما اجتماعية،لايهم سوى المفكرين والاكاديميين•لكنها أساسا محاولة لتغيير العالم•وهذا واضح منذ البداية ، فقد كتب ماركس فى أطروحته الحادية عشرة عن فيورباخ (ربيع ١٨٤٥) « اقتصر الفلاسفة على **تفسير** العالم بطرق مختلفة ، لكن النقطة هى أن نغيره »(١٢) • وتغيير العالم دونه عقبات ومصالح فئات وطبقات تسيطر على السلطة فى أكثر بلدان العالم • وحتى أنصار التغيير لا يتفقون جميعا على أهدافه ، ولا على وسائله •

ولذا فالماركسية تتعرض من الخارج ليس فقط لمعارضة ونقد

« موضوعيين » ولكن أيضا لهجوم ومحاولات هدم يستتباح فيها مالا يجوز استباحته • أما فى الداخل فالخلافات لا تنتج فقط عن النقد الموضوعى ومحاولات التطوير التى لا غنى عنها ، بما تحوى من اتجاهات خصبة أو عقيمة • بل تنتج أيضا عن محاولات واعية متعمدة لتحييد الماركسية وطمس روحها النقدية وتفريغها من محتواها الثورى خدمة لاعدائها الطبقيين •

مواجهة لهذا ، تولد بين الماركسيين اتجاه قوى **للمحافظة** على ثورية الماركسية • كما لو كانت هذه الثورية شيئا قد اكتمل بالفعل ، وليست أبدا فى طور التكوين ، وعلى الماركسيين ألا يكفوا عن محاولة تنميتها وتطويرها •ولعل انتشار استخدام كلمتى « التحريف » و « المراجعة » فى أدبيات الماركسية ناتج عن تأثير هذا الاتجاه المحافظ •فهاتان الكلمتان توحيان بأن هناك شيئا مكتملا ، ليس هناك من واجب الا صونه • هذا الاتجاه المحافظ ـ الذى تعتبر الستالينية أبرز مثال عليه ـ يجهل أو يتجاهل ، أنه يوقف نمو الماركسية ويؤدى بها الى الضمور والتحلل ، وبالتالى فان خطورته عليها قد تزيد على خطورة « التحريف » و « المراجعة » • وهذا ما تنبه اليه لينين ، فقد خاض فى حياته نضالا مريرا ليس فقط ضد التحريف والمراجعة ولكن ايضا ضد المحافظة والجمود •

لهذه المشكلات جانبها العملى كما أن لها جانبها الاكاديمى • اليس مما له أهمية علمية قصوى أن نبحث الخلاف بين الاتجاه السوفيتى والاتجاه الصينى مثلا ؟ هل نعتبر أحدهما ماركسيا والآخر ليس كذلك ؟ أم نعتبرهما ماركسيين ونقبل بذلك تعدد الماركسيات ؟ أم نصدق كل منهما فى أن الآخر ليس ماركسيا ؟ أم ماذا ؟ من الممكن أن نثير أسئلة مشابهة عن الخلاف بين اتجاه الدولية الثانية الكاوتسكى ، والاتجاه اللينينى •

على المستوى الفكرى يجب الاتفاق على بعض المعايير (كالمعايير

الخمسة السابقة مثلا) التى لها أصول أو مبررات فى الفكر الماركسى للمؤسسين ماركس وانجلز ، أو صلة ما مقبولة بهذا الفكر (اذا ما أريد البقاء داخل اطار الماركسية بالمعنى الواسع للكلمة) ، حتى يمكن الاسترشاد بهذه المعايير فى التنمية والتطوير ، ومحاكمة الاتجاهات المختلفة ، دون اغفال تنمية وتطوير هذه المعايير ذاتها • غير أن الفكر وحده لا يكفى • فالنضال ـ المتفاعل مع الفكر ـ الذى يؤدى الى نجاحات عملية ، يسهم اسهاما أساسيا فى جذب الجماهير (وأيضا المفكرين المتخصصين) ، الى هذا الاتجاه أو ذاك•هذا ماحدث فى حال لينين وكاوتسكى • فلا يكاد يوجد خلاف الآن على أن اللينينية ـ لا الكاوتسكية ـ هى استمرار الماركسية فى الربع الاول من قرننا هذا • أيضا لا يكاد يوجد الآن خلاف بين الماركسيين على أن الكاوتسكية كانت تتجه (بحسن أو بسوء نية) الى تفريغ الماركسية من محتواها الثورى خدمة للبرجوازية المحلية والعالمية • هل يمكننا أن نقول شيئا مشابها ، عن أحد كلا الاتجاهين السوفيتى والصينى ؟

سنسمح لانفسنا فيما يلى أن نستخدم كلمة « ما ركسية » ومشتقاتها دون مزيد من التحديد • آملين ألا يحول ما قد يثيره هذا من مشكلات دون قدر مقبول من التفاهم •

٤ ـ ماركس والمــاركســية

كمـــا أن الفكر الماركسى ليس كله فــكر كارل ماركس فان فــكر كارل ماركس قد لا يكون كله جزءا من التراث الماركسى . فماركس كان صبيا وشابا قبل أن يصير رجلا « ناضجــا » ٠ وهو فى مراحل حياته تلكدرس وفكر وكتب ٠ منذ متى يمكن أن نعتبر أن ماركس قد صــار « ماركسيا » ، وأن فكرة جزء من التراث الماركسى ؟ لا خلاف على أن البيان الشيوعى (١٨٤٨) وما جاء بعــده من كتابات ماركس وانجلز (معا أو كل على حدة) جزء من التراث الماركسى ٠ هذا لا يعنى أنهمــا لم يتطورا (فكريا) تطورا هاما(١٣) بعد اصدار هــــذا البيان ٠ أما ما قبل البيان الشيوعى فعليه خلاف ٠

أهم ما كتبه ماركس ابتداء من عام ١٨٤٤ وحتى اصدار البيان ما يلى : فقــر(١٤) الفلسفة (كارل ماركس ١٨٤٧) ، الايديولوجيــة الالمانية (ماركس وانجلز ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ لكنه لم ينشر لاول مرة الا فى ١٩٣٢ وكان ذلك فى الاتحاد السوفيتى) ، العائلة المقــدسة (ماركس وانحلز ١٨٤٥) ، أطروحات عن فيورباخ (ربيع ١٨٤٥ ، نشرت لاول رمة كملحق بكتاب انجلز « لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمــانية الكلاسيكية» عام ١٨٨٨) ، المخطوطات الاقتصادية الفلسفية ، والمسألة اليهودية ، ونقد فلسفة الحق عنــد هيجل (١٨٤٤ وقــد نشر الاخيران بالالمانية فى نفس السنة فى العدد الوحيد الذى صدر من مجلة«الحوليات الفرنسية الالمــانية » التى أسهم ماركس فى تأسيسها ٠ أما الاول فلم ينشر الا بعد ١٩٣٠ ٠ والثلاثة لم تترجم الى كثير من اللغات الهــامة

كالانجليزية والفرنسية (بالنسبة الى الاول والاخير على الاقل) الا بعد ١٩٣٥) ٠

هناك أيضا كتابات لكارل ماركس قبل ١٨٤٤ ، لكن لهذا العام أهمية خاصة فهو الذى يعتبر الحدالفاصل بين ماركس المثالى الليبرالى عضو حركة الهجليين الشبان,وماركس المادى الاشتراكى(١٥) الذى يبدأ مرحلته الجديدة هذه متأثرا بفيورباخ ٠

لننظر الآن فى مشكلة اعتبار كتابات ١٨٤٤ ـ ١٨٤٨ جزءا من التراث الماركسى ٠ المعجم الفلسفى السوفيتى(١٦) يعتبر كتاب فقر الفلسفة ، أول أعمال الماركسية الناضجة ٠ لا يجوز أن نفهم من كلمة « الناضجة » أن الماركسية قد اتخذت شكلها النهائى عام ١٨٤٧ ، فليس للماركسية شكل نهائى (الا مؤقتا) لأنها متطورة أبدا (كما سيتضح أكثر فيما بعد) ٠ أيضا لا يجوز أن نفهم من هذه الكلمة أن فكر كارل ماركس قد اتخذ شكله النهائى فى هذه السنة ٠ فالدراسة توضح أن الأعوام حول ١٨٥٨ قد شهدت تبلور المادية الديالكتيكية فى فكر ماركس وانجلز ٠ وهذا ما تنبه اليه هنرى لوفافر ، اذ يقول فى كتابه « كارل ماركس »(١٧) : « ٠٠٠ وهذا يجعل من ١٨٥٩ عاما حاسما فى تاريخ فكر ماركس وفى نشأة المادية الديالكتيكية » ٠

البحث المفصل فى تطور كارل ماركس،خاصة بين ١٨٤٤و١٨٥٨، يساعدنا مساعدة أساسية فى علاج مشكلتنا ٠ لكننا لن نفعل هذا الآن وسنكتفى بعرض النقاط التى يمكن اعتبارها معالما فى الطريق ٠

الجزء الأخير من المخطوطة الثالثة من المخطوطات الاقتصادية الفلسفية يحمل العنوان التالى : « نقد ديالكتيك هيجل وفلسفته العامة » ٠ فى هذا الجزء يرفض ماركس الفلسفة بصفة عامة ، كما يرفض الديالكتيك ، ويقبل نظرة فيورباخ الوضعية ٠ فهو يقول(١٨) :

« الانجاز العظيم لفيورباخ هو :

١ ـ أنه رأى أن الفلسفة ليست الا دينـا ، أتى به الى الفكر ، وتطور بالفكر ، وأنها مدانة بالمثل كشكل آخر ، ونمط آخر من وجود الاغتراب الانسانى ٠

٢ ـ أنه أسس **المادية الأصيلة والعلم الوضعى** بأن جعل العلاقة الاجتماعية « للانسان بالنسان » المبدأ الرئيسى لنظريته ٠

٣ ـ أنه عارض نفى النفى الذى يدعى أنه الايجابى المطلق ، أنه مبدأ يجعل نفسه يستمر فى الوجود بنفسه ، مؤسسا ايجابيا على نفسه » ٠

هـذه المعارضة للفلسفة والديالكتيك نجدها فى كتاب « فقر الفلسفة » أيضا ٠ فمجرد عنوان الكتاب يرى كم كان ماركس ـ وقت كتابة ذلك الكتاب نحو ١٨٤٧ ـ يرى أن الفلسفة فقيرة عقيمة غير قادرة على اضافة أى شىء مفيد ٠ انظر مثلا كيف يسخر من هيجل وديالكتيكه (الذى تبناه برودون) :

«٠٠٠ لما لم يكن لدى العقل ، غير الشخص خارج نفسه ، قاعدة يستطيع أن يضع نفسه عليها ، ولا شيئا يستطيع أن يعارض نفسه ضده ، ولا موضوعا يستطيع أن يكون نفسه معه ، فانه يضطر الى أن ينقلب رأسا على عقب فى وضع نفسه ، معارضة نفسه ، وتكوين نفسه ـ وضع ، معارضة ، تكوين ٠ أو ، لنتحدث الهيجلية سنعطى الصيغة المقدسة : التقرير ، النفى ونفى النفى ٠ هـذا ما تعنيه اللغة ٠ انه بالتأكيد ليس عبريا (مع الاعتذارات اللازمة للسيد برودون) لكنها لغة عقله المطلق منفصلا عن الفرد ٠ بدلا من الفرد العـادى بسلوكه العادى فى الحديث والفكر ليس لدينا الا هـذا السلوك العادى فى حد ذاته ـ بدون الفرد »(١٩) ٠

بالرغم من أن ماركس يلاحظ فى أكثر من موضع فى كتابه(٢٠) أن برودون يشوه الديالكتيك الهيجلى ويسىء استخدامه ويبسطه أكثث من اللازم،فان معارضته للديالكتيكتمتد الى أبعد من سوء استخدام برودون له • هـذا واضح مما سبق ، أيضا يقول ماركس : « لما كان التاريخ ، وخيال السيد برودون ، يناقضكل منهما الآخر عندكلخطوة، فان الأخير يخلص الى أن هناك تناقضا • **اذا كان هناك تناقض ، فهو موجود فقط بين فكرته الثابتة والحركة الحقيقية** »(٢١) •

كثير من أفكار المادية التاريخية مبلور فى كتاب فقر الفلسفة (وان كان بصورة أقل تطورا من تلك التى ظهر بها ، فيما بعد ، فى كتاب رأس المال ، كما يلاحظ انجلز فىمقدمته للطبعة الالمانية الاولى،لكتاب فقر الفلسفة المؤرخة فى ١٨٨٤/١٠/٢٣) • أما المادية الديالكتيكية فلم تكن واردة • بل ان الفلسفة كلها كانت ، فى رأى ماركس فى ذلك الوقت ، ليست لازمة لفهم الواقع • فهو يقول فى خطابه لأننكوف (١٨٤٦/١٢/٢٨) « لا يعطينا السيد برودون نقدا فاسدا للاقتصاد السياسى لأنه استاذ لنظرية فلسفية لا معقولة ، لكنه يعطينا نظرية فلسفية لا معقولة لأنه يفشل فى فهم النظام الاجتماعى المعاصر فى ترابطه ••• »(٢٢) •

سخرية ماركس من هيجل وديالكتيكه امتدت الى ما بعد البيان الشيوعى • فقد كتب عن هيجل فى ١٨٥٣/٥/٢٠ يقول « تعود متأمل فى المبادىء التى تحكم حركات الانسانية ، عميق جدا لكنه خرافى ، أن يحبذ ، كأحد الاسرار المتحكمة فى الطبيعة ، ما أسماه قانون تلاقى الاطراف • فالمثل الدارج « الاطراف تتلاقى » هو فى نظره حقيقة كبرى مؤثرة فى كل مجالات الحياة وبديهية قلما يستطيع الفيلسوف أن يهملها ، مثله معها ، كمثل الفلكى مع قوانين كبلر ، أو الاكتشاف العظيم لنيوتن »(٢٣) •

مع مطلع عام ١٨٥٨ كانت الامور قد تغيرت(٢٤) بما يكفى لكى يصير منطق هيجل ذا فائدة عظيمة لكارل ماركس وليس مجرد مادة للهجوم والسخرية • فقد كتب الى فريدريك انجلز فى ١٨٥٨/١/١٤ يقول « ••• بالمناسبة الأشياء تتطور بطريقة حسنة ، مثلا ألقيت جانبا كل فكرة الربح كما كانت موجودة حتى الآن • فى منهج العلاج ، حقيقة أنى بالصدفة البحتة ألقيت نظرة سريعة مرة أخرى خلال منطق هيجل ، كانت ذات فائدة عظيمة لى ••• اذا كان هناك وقت مطلقا لمثل هذا العمل مرة أخرى ، فانى أرغب بشدة أن أجعل فى متناول الذكاء الانسانى العادى ـ فى صفحتين أو ثلاثة من صفحات المطبعة ـ ما هو **عقلانى** فى المنهج الذى اكتشفه هيجل ، لكنه فى نفس الوقت غلفه بالغموض »(٢٥) •

بعد ذلك بستة أشهر (١٨٥٨/٧/١٤) أرسل(٢٦) انجلز الى ماركس بعض أفكاره فى ديالكتيك الطبيعة •

انه ميلاد المادية الديالكتيكية(٢٧) •

اذا كنا بعد كل هذا نعتبر (مع المعجم الفلسفى السوفيتى) ، فقر الفلسفة جزءا من التراث الماركسى ، فلماذا لا نعتبر غيره من كتابات ١٨٤٤ ـ ٤٨ جزءا من نفس التراث (فى طوره الجنينى على الاقل) ؟

يبدو أن بعض هذه الكتابات لم تأخذ وضعها الذى هى جديرة به فى التراث الماركسى لا لشىء الا لأنها لم تنشر ، أو لم تنشر الا فى الماضى القريب • لكن هذا ليس سببا مقبولا •

على كل فيما يلى سنعتبر كل هذه الكتابات جزءا من التراث الماركسى •

٥ ـ الفلسفة الماركسية وفريدريك انجلز

كما قلنا سابقا ، الماركسية ليست فلسفة لكن هناك فلسفة ماركسية • ولما كانت الماركسية تربط الفكر بالنضال فان كثيرا من المفكرين الماركسيين العظام هم مناضلون عظام أيضا ، ماركس ، انجلز ، لينين ، ماوتسى تونج ، وغيرهم • خاض هؤلاء المناضلون المفكرون غمار معارك كثيرة شغلت جزءا كبيرا من كتاباتهم وتركت لهم وقتا ضئيلا لعرض أفكارهم عرضا منظما شاملا متكاملا غير مقتصر على مهام النضال أو النقاش العاجلة • ولذا فاننا لا نجد الفلسفة الماركسية فى الكتب المخصصة لها فقط بل نجدها أيضا فى طيات الكتابات الاخرى التى قد لا تكون الفلسفة موضوعها الاساسى •

لم يجد كارل ماركس الوقت الكافى لتحقيق رغبته الشديدة فى كتابه رسالة عن المنهج(٢٨) ، (انظر الفصل الرابع) ، بل انه بعد عام ١٨٤٨ لم يكرس أى جزء كبير من كتاباته للفلسفة • ومن ثم فان المصدر الرئيسى للفلسفة الماركسية بين ١٨٤٨ ، ١٨٩٥(٢٩) هو كتابات انجلز •

وأهم هذه الكتابات :

١ ـ الباب الأول من كتاب ضد دوهرنج(٣٠) (صدر فى ١٨٧٨) •

٢ ـ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية • (صدر فى ١٨٨٨) •

٣ ـ ديالكتيك الطبيعة (مخطوطات غير كاملة كتبت فى الفترة بين ١٨٧٣ ، ١٨٨٦ ولم تنشر لأول مرة الا فى عام ١٩٢٥ وكان ذلك فى الاتحاد السوفيتى) ٠

الأول ـ كما هو واضح من عنوانه ـ مكتوب فى حومة النقاش ، والثانى رسالة صغيرة مطورة عن عرض نقدى قدمه انجلز لكتاب عن فيورباخ ونشره فى احدى الجرائد الالمانية عام ١٨٨٦ والثالث لم يفرغ مؤلفه من وضعه فى صورة يرضى له أن ينشر عليها ٠

هـذا النقص الشـديد فى المصادر الكلاسيكية للفلسفة الماركسية خاصة تلك التى كان همها الرئيسى تقديم عرض مفصل متكامل وليس نقـد هـذا أو التعليق على ذلك ، يشكل صعوبة كبيرة فى دراسة هذه الفلسفة وتطويرها ! ولقـد كان انجلز مدركا هـذا النقص فقد كتب فى مقدمة الطبعة الاولى لكتابه ضد دوهرنج : « ٠٠٠ لكن يوجد أيضا اعتباران آخران يمكن أن يبررا هـذه الاطالة فى العلاج ٠ فمن جهـة قـد أتاحت لى ـ فيما يتعلق بالموضوعات المختلفة جـدا التى يجب أن تمس هنا ـ فرصة أن أضع بشكل ايجابى وجهات نظرى فى نقـاط خلافية يحيطها اليوم اهتمام علمى أو عملى عام ٠ هـذا قـد تم فى كل فصل بلا استثناء ٠ وبالرغم من أن هـذا العمل لا يستطيع أن يهـدف بأية طريقة الى عرض نسق آخر كبديل « لنسق » السيـد دوهرنج فانه من المأمول ألا يفشل القارىء فى ملاحظة الترابط المتأصل فى مختلف وجهات النظر التى قدمتها ٠ ولدى بالفعل برهان كاف على أنه بهذا الصـدد لم يكن عملى بلا ثمار مطلقا »(٣١) ٠

كانت الأمور ستصير أفضل قليلا لو أن انجلز كان قـد ادخل على الطبعات التالية من كتابه هـذا كل التعديلات الكثيرة التى كان يريد أن يجريها ٠ لكنه لم يفعل ، لضيق الوقت من جهـة ، ولاحترامه آداب الصراع الفكرى من جهة أخرى(٣٢) ٠ وكانت الأمور ستصير أفضـل

كثيرا لو أنه تمكن من عرض نسقه بطريقة مفصلة شاملة كاملة ٠ ويبدو أن ديالكتيك الطبيعة كان محاولة فى هذا الاتجاه لكنها لم تتم ٠

الدور الكبير الذى لعبه انجلز فى الماركسية بصفة عامة والفلسفة الماركسية بصفة خاصة ، يدفع البعض الى الاهتمام بالعلاقة بين فكره وفكر ماركس ٠ مثلا يقولون : ان ماركس لم يتحدث عن الديالكتيك الا فيما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، ولم يتحدث عن ديالكتيك الطبيعة (غير البشرية) أبدا ٠ أما انجلز فقد اهتم كثيرا بديالكتيك الطبيعة ٠ وعليه ، فهناك ديالكتيك ماركسى وآخر انجلزى ٠ هذه المشكلة لن تشغلنا هنا كثيرا ٠ فالماركسية لدينا ليست فكر كارل ماركس ونحن نعتبر كل كتابات انجلز بعد ١٨٤٨ جزءا من التراث الماركسى حتى اذا كان بعض ما ورد فيها من أفكار مخالف لفكر كارل ماركس ٠ على كل قد يكون من المفيد أن نستمع الى رأى انجلز فى هذه المشكلة ٠ يقول انجلز فى مقدمة الطبعة الثانية لضد دوهرج (وبالكتاب كثير من ديالكتيك الطبيعة) « على أن أشير مرورا ، الى أنه ، لما كان نمط وجهة النظر المشروحة فى هذا الكتاب قد تأسس وتتطور بواسطة ماركس بقدر أعظم بكثير جدا ، وبواسطتى بدرجة ضئيلة فقط ، فقد كان من المفهوم ضمنا ، أن هذا العرض الذى كتبته ، لا يجوز أن يصدر دون معرفته ٠ لقد قرأت عليه كل المخطوط قبل أن يطبع ٠٠٠ »(٣٣) ٠

٦ ـ الفلسفة الماركسية والمعايير الخمسة

ناقش كثير من الفلاسفة (قبل ماركس) كثيرا من المشكلات الانسانية : الاغتراب ، التحرر ، الشخصية ، الذاتية ، الموضوعية الروحية ، المادية ، الفعالية ، التأثر ، الوجود ، الكينونة ، الصيرورة ، الماهية ، الحرية ، الضرورة ، الفرد ، الجماعة ، التشيؤ ، اثبات الذات ، تحقيق الذات ، علاقة الانسان بالانسان ، علاقة الانسان بالطبيعة ، وغير ذلك . هذا النقاش اقتصر على المستوى الفكرى فقط : اعتبرت المشكلات مشكلات فكرية خالصة ، وبحث لها عن حل فكرى مجرد . فـ « كل تاريخ الاغتراب والغاء الاغتراب هو اذن مجرد تاريخ انتاج الفكر المجرد أى الفكر المطلق المنطقى التاملى »(٣٤) . لكن هذه المشكلات مشكلات حياتية ذات طابع اجتماعى وبالتالى فلن يكون لها حل الا فى مضمون اجتماعى .

فـ « المجتمع المتكامل التاسيس ينتج كحقيقة مستمرة انسانا بكل تعدد كينونته ، الانسان الثرى الموهوب بكل الاحاسيس ، فمن خلال مضمون اجتماعى فقط ، تكف الذاتية والموضوعية ، الروحية والمادية ، الفعالية والتأثر عن أن تكون متعارضة وبالتالى تكف عن الوجود كمتعارضات . ان حل التناقضات النظرية ممكن فقط من خلال طرق عملية ، فقط من خلال الطاقة العملية للانسان . اذن فحلها بالتاكيد ليس مجرد مشكلة فى المعرفة انه مشكلة حقيقية فى الحياة ، لم تستطع الفلسفة حلها ، بالضبط لانها رأتها مشكلة نظرية بحتة »(٣٥) . ولذا فعلى الفلسفة اذا أرادت أن تكون فعالة فى حل

المشكلات الانسانية ، أن تتغير وأن يناط بها مهام جديدة · « المهمة العاجلة للفلسفة التي تخدم التاريخ ، هي أن تكشف القناع عن الاغتراب الذاتي للانسان في شكله العلماني ، الآن وقد كشف عنه القناع في شكله المقدس · وعلى هذا فنقد السماء يتحول الى نقد الارض ، ونقد الدين يتحول الى نقد القانون ، ونقد اللاهوت يتحول الى نقد السياسة »(٣٦) ·

هذه الفلسفة النقدية تكشف لنا عن قصور المفهوم البرجوازى ، ذلك المفهوم المتمركز حول التحرر السياسى · « لأن التحرر السياسى ليس الشكل النهائى والمطلق للتحرر الانسانى »(٣٧) · أيضا تكشف لنا هذه الفلسفة عن أن الملكية الخاصة ليست هى لب المشكلة على عكس ما ترى الشيوعية الفجة · فتحليل مفهوم العمل المغترب « يرى أنه بالرغم من أن الملكية الخاصة تظهر كما لو كانت أساس وسبب العمل المغترب ، فانها بالعكس نتاج هذا الاخير · تماما كما أن الآلهة ليسوا فى الاساس سبب ، بل نتيجة اختلاطات العقل البشرى · لكن فى مرحلة أخرى ، هناك تأثير عكسى »(٣٨) · ولذا فالمشكلة لا تؤول أبدا الى مجرد معارضة الملكية الخاصة بالملكية العامة والقضاء على الاولى لصالح الاخيرة · ففى ظل هذا « لا يقضى على دور العامل بل انه يمتد الى الناس كلهم · وتظل علاقة الملكية الخاصة هى علاقة الجماعة بعالم الاشياء »(٣٩) · « هذه الشيوعية التى تنفى شخصية الانسان فى كل مجال ، ليست الا التعبير المنطقى عن الملكية الخاصة التى هى هذا النفى »(٣٩) ·

والمطلوب ليس الاقتصار على اشباع حاجاتنا الى المأكل والمشرب وما الى ذلك · فـ « من المؤكد أن الاكل والشرب والتكاثر أيضا وظائف انسانية أصيلة · لكنها تكون وظائف حيوانية ، اذا نظر اليها بتجريد بعيدا عن وسط الانشطة الانسانية ، واذا ما حولت الى غايات نهائية وحيدة »(٤٠) · بل المطلوب اشباع هذه الحاجات الطبيعية حتى

يفرغ الانسان للانتاج الحقيقى . فالحيوانات « تنتج فقط تحت جبر الحاجات الطبيعية المباشرة بينما ينتج الانسان عندما يتحـــرر من الحاجة الطبيعية . وهو ينتج حقيقة فقط عندما يتحرر من هذه الحاجة . الحيوانات تنتج نفسها فقط بينما يعيد الانسان انتاج الطبيعة كلها . منتجات الحيوان تنتمي مباشرة الى جسده ، بينما الانسان حر فى مواجهة منتجه . تبنى الحيوانات فقط تبعا لمقاييس وحاجات النوع الذى تتبعه ، بينما يعرف الانسان كيف يبنى تبعا لمقاييس كل الانواع ويعرف كيف يطبق المقاييس المناسبة على الشىء . وعلى هذا فالانسان يبنى أيضا تبعا لمعايير الجمال »(٤١) .

والانســـان يجعـــل من نشـــاط حيـــاته موضوعا لوعيـه وارادته . و « لهـــذا الســـبب وحـــده فان نشـــاطه نشـــاط حر . لكن العمل المغترب يعكس العلاقة ، الى أن الانسان لانه كائن واع بذاته ، يجعل نشاط حياته ، **كينونته** ، مجرد وسيلة **لوجوده** »(٤٢) . والعمل المغترب يغرب الطبيعة عن الانسان ، والانسان عن نفسه ، عن نشاط حياته ، والانسان عن الانسان . » وهو فى المقام الاول يغرب حياة الجماعة وحياة الفرد ، وثانيا يحول الاخيرة ، كتجريد ، الى هدف للاولى ، أيضا فى شكلها المجرد والمغترب »(٤٢) .

اذن فعلى الانسان أن يصير سيد نشاطه بدلا من أن يظل عبـدا له . عليه أن يضع الملكية فى خدمته بدلا من أن يظل فى خدمتهـا . عليه أن يطور وسائل انتاجه وعلاقات انتاجه حتى يشبع حاجاته الاساسية بأقل قـدر ممكن من التكلفة الاجتماعية . ومن ثم يطلق لمواهبه وطاقاته الخلاقة الفنان ليسعد ويستمتع وينتج الجمال غير المحكوم بالضرورة .

فـ « لا يمكن أن تتبـكون الحـــرية فى هـــذا المجـــال ، الا من حقيقة أن ينظم الجنس البشرى المطور اجتماعيا ، المنتجون المتحدون ، تعامله مع الطبيعة عقلانيا . أن يضع المنتجون هـذا التعامل تحت

تحكمهم المشترك بدلا من أن يحكموا به كقبوة عمياء . وعليهم إن يحققوا هـذه المهمة بانفاق أقل طاقة ممكنة وفي ظـل ظروف تليـق بالبشر . لكن هـذا يبقى دائما في نطاق الضرورة . بعده يبدأ تطوير القدرات البشرية لاجل ذاتها ، النطاق الحقيقي للحرية ، الذى لا يمكن أن يزدهر بالرغم من ذلك الا على أساس من نطاق الضرورة ذاك»(٤٣) .
وعلى هـذا فـ « حياة الانسان الحقيقية ايجابية ، ولا يمكن التوصل اليها من خلال نفى الملكية الخاصة من خلال الشيوعية . الشيوعية هى حال نفى النفى وبالتالى فهى عامل حقيقي وضرورى لتحرر الانسان ورد اعتباره فى المرحلة التالية للتطور التاريخى . الشيوعية هى الشكل الضرورى والمبـدأ الدينـاميكى فى المستقبل العاجل ، لكن الشيوعيـة ليست فى حـد ذاتها هـدف التطور الانسانى »(٤٤) .

اذن فالشيوعية ـ على عكس ما يتوهم الكثيرون ـ ليست غاية أخيرة ينتهى عندها التطور البشرى ، فى ظلها يعيش الناس فى نعيم مقيم . غدهم كيومهم ويومهم كأمسهم . بل هى وسيلة أكثر منهـا غاية . انها بداية التاريخ الحقيقى للانسان بداية وعى جمعى يصحب الوعى الفردى ويساعد البشر على توجيه عملهم لصالحهم متحررين من استغلال الانسان وتسلط الدولة ويتيح أكبر الفرص لتطور علاقاتهم وطاقاتهم وملكاتهم ومواهبهم ويفسح أوسع المجالات للنشاط الانسانى (الجمعى والفردى) المبـدع الخـلاق .

والآن : كيف يصير التطور الى الشيوعية وفى ظل الشيوعية ؟ يصير بفعل الانسان الواعى الايجابى النشط . ان « المبـدأ المـادى القائل بأن الناس نتاج الظروف والنشـأة ، وبالتـالى فإن النـاس المتغيرين نتائج ظروف أخرى ونشأة متغيرة ، ينسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف ، وأن المربى نفسه يحتاج الى أن يربى . ومن ثم فان هـذا المبـدأ يصل بالضرورة الى تقسيم المجتمع الى جزئين أحدهما فوق المجتمع . . . ان تطابق تغيير الظروف والنشاط الانسانى ،

يمكن أن يتصور ويفهم عقلانيا فقط كفعل مثور »(٤٥) ٠

حقيقة ، ان الناس يصنعون تاريخهم « لكنهم لا يصنعونه كما يرغبون تماما ٠ فهم لا يصنعونه تحت ظروف اختاروها بأنفسهم بل تحت ظروف، يلاقونها مباشرة ، معطاة ومتوارثه من الماضى »(٤٦) ٠ هنا لا غنى عن العلم ٠ فالمشكلة ليست تصور مجتمع مثالى ، كما أن تلخيصها فى ثورة المقهورين على القاهرين أو المظلومين على الظالمين هو تبسيط مخل ٠ فتاريخ الفكر ملىء بمجتمعات مثالية كثيرة لم يحاول أحد الوصول اليها، أو باءت كل محاولات الوصول اليها بالفشل ٠ كما أن تاريخ المجتمعات ملىء بالثورات التى قام بها المقهورون والظلمون ، والثورات التى استخدم فيها المقهورون والمظلومون ، التى منيت بالهزيمة أو تمخضت عن طبقات جديدة تمارس قهرا وظلما من نمط جديد ٠ بالعلم نستطيع أن نتبين كيف تسير وتتطور المجتمعات البشرية ، وبالتالى يمكن أن نجعل هذا السير وهذا التطور مجالا للنشاط الواعى للانسان ٠

ولذا فالاشتراكية الماركسية هى الاشتراكية العلمية والانسانية الماركسية هى الانسانية العلمية النضالية ٠ وهكذا لا غنى للجانب الانسانى للفلسفة الماركسية عن جانبها العلمى ولا عن النضال الانسانى ٠

الحديث عن علاقة العلم بالفلسفة الماركسية كثير وشائع ٠ وبالرغم من أنه ليس بلا مشكلات، فسنكتفى بما سبق عن الجانبين الانسانى والعلمى للفلسفة الماركسية ٠ وسنعرج الآن على المعيار الثانى : التآلف الذاتى ٠

٧ ـ الديالكتيك والتناقض

كما قلنا سابقا كانت نظرة كارل ماركس الى العلم فى البداية نظرة فيورباخية وضعية وكان يظن خطأ أن بالامكان بناء علم بلا فلسفة • هذه النظرة تغيرت فى نهاية الخمسينيات من القرن الماضى ، وكانت بداية المادية الديالكتيكية • لعب انجلز دورا هاما فى تطوير المادية الديالكتيكية،ولعب الدور الاساسى فى تقديمها الى الناس•وكان ذلك أساسا من خلال كتبه الثلاثة : ضد دوهرنج الذى كتب فى حومة النقاش ، وديالكتيك الطبيعة الذى تركه مخطوطا لم يكمل ، ولودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية •

ترك لنا انجلز ثروة كان من المفروض أن تستثمر وتتطور كما نبه الى ذلك هو نفسه عندما قال/« لكن كما أن المثالية تعرضت لسلسلة من مراحل التطور فقد فعلت المادية نفس الشىء أيضا • فعليها أن تغير شكلها مع كل اكتشاف يبدأ عصرا جديدا حتى فى مجال العلوم الطبيعية • وبعد أن تعرض التاريخ للعلاج المادى فقد فتح طريق جديد للتطور هنا أيضا »(٤٧) • ولم يقتصر تنبيه انجلز على ما كان فى طيات المستقبل بالنسبة اليه بل كان يرى أن ربط المادية الديالكيتيكية بعلوم عصره واجب ضخم حاول أن ينجزه لكنه لم يفعل • فقد قال فى مقدمة الطبعة الالمانية الثانية (١٨٨٥) لكتابه ضد دوهرنج « وفى النهاية لا يمكن أن يكون لدى أى سؤال حول بناء قوانين الديالكتيك فى الطبيعة ، بل اكتشافها فى الطبيعة وتطويرها من الطبيعة • لكن القيام بهذا بطريقة منظمة وفى كل فرع على حدة واجب ضخم • فليس

المجال المطلوب تسيده لا نهائيا تقريبا فحسب بل ان العلم الطبيعى فى هذا المجال كله يتعرض هو نفسه الى عملية تثوير قوية ، حتى لا يكاد يسايره الناس الذين يستطيعون تكريس كل وقت فراغهم له · لكن منذ وفاة كارل ماركس ، طلب وقتى لواجبات أكثر الحاحا ···»(٤٨) ·

لكن أحدا من الذين تلوا انجلز لم ينجـز واجبه الضخم · كما أن تنبيه انجلز الى التطوير لم يجد كثيرا · ففيما عدا محاولة لينين التى نشرها فى كتابه «المادية والنقد التجريبى» (١٩٠٨) ، لا توجد أية محاولة جادة للتطويـــر حتى الستينيات من قرننا هـــذا(٤٩) · بل اقتصر الديالكتيك على مجموعة من الصيغ ومجموعة من الامثلة تحاول بناء هذه الصيغ فى الطبيعة على عكس ما كان انجلز يرى · وقد كان للينين ملاحظة فى هذا الاتجاه اذ يقول « يؤخذ تطابق الضدين كحصيلة من الامثلة («مثلا حبه» ، «مثلا الشيوعية البدائية» ويصدق هذا على انجلز · لكن عنده كان هذا « فى صالح التبسيط ··· ») وليس كقانون للمعرفة (وكقانون للعالم الموضوعى) »(٥٠) ·

سنعود الى هذا الموضوع فى الفصل الحادى عشر · وسنقتصر هنا على بحث مشكلة التنـاقض لصلتها الوثيقة بالمعيار الثـانى من معاييرنا الخمسة ·

من شبه المتفق عليه الآن أن التناقض الديالكتيكى شىء (مقبول) ، والتنـاقض المنطقى(٥١) شىء آخـر(٥٢) (مرفوض) · لكن هـــذا اتفاق جديد · فالديالكتيك لم يكن يرى فى المنطق الشكلى(٥١) رأيا حسنا · يقول لينين عن المنطق الشكلى وأحد قوانينه (الافضـل أن نقول مسلماته أو مصادراته) : أ = أ · « فراغ هذه الاشكال (أشكال المنطق الشكلى) تجعلها « جـديرة بالاحتقار » و « سخيفة »(٢٠) · قانون الهوية أ = أ ، فارغ « لا يطاق »(١٩) » (٥٣) . ومن قبله قال انجلز « بالمثل ، الهوية المجردة (أ = أ ، سلبيا أ لا تستطيع أن تكون

فى آن واحد مساوية وغير مساوية لـ أ) غير قابلة للتطبيق فى الطبيعة العضوية »(٥٤) و « أثبت العلم الطبيعى خطأ هذا القانون (أى قانون الهوية) شيئا فشيئا ، فى كل حال على حدة • لكنه لا يزال سائدا على المستوى النظـــرى ، ولا يزال أنصـــار القديم فى مواجهة الحـديث يقدمونه»(٥٥) •لكن الديالكتيكيين الكلاسيكيين لايرفضون المنطق الشكلى جملة وتفصيلا•فلينين يقول « من الاجحاف أن ننسى أن هذه المقولات (أى مقولات المنطق الشكلى) « لها ميدان فى المعرفة ، وفى هذا الميدان يجب أن تكون صالحة» ولكنها كـ « أشكال لا مبالية » يمكن أن تصبح « أدوات للضلال والسفسطة »(٢٠) لا للحقيقة »(٥٦) • أما انجلز فقد كان أكثر تحديدا حين قال«الهوية المجردة مثل كل المقولات الميتافيزيقية تـكفى للاستعمال فى الحياة اليوميـة • حيث ينصب الاهتمـام على الابعاد الصغيرة أو الفترات الزمنية القصيرة ، الحدود التى يمكن أن تستعمل فيها تختلف تقريبا فى كل حال وتتحدد بطبيعة الشىء • فهى فى حال مجموعة كوكبية ••• أوسع بكثير منهـا فى حال حشرة تكمل نموها فى أسابيع قليلة »(٥٧) •

وقـد نتج عن هـذه النظرة الى المنطق الشكلى أن حـرم(٥٨) المنطـق الرياضى (وهو الطور المعاصر للمنطـق الشكلى) فى الاتحاد السوفيتى حتى عام ١٩٤٧ •

ان انجـلز يرفض قانون الهويـة المجرد (لانه يـرى أن العلم الطبيعى خطأه) • وهو يقبل أن تكون أ ، فى آن واحد ، مساوية وغير مساوية لـ أ• وهذا تناقض منطقى • وهكذا فان انجلز يقبل التناقض المنطقى بل انه لم يكن يفرق أصـلا بين التناقض المنطقى والتناقض الديالكتيكى ، كما نفرق نحن الآن•يبدو أن انجلز قد أخذ هذا عن هيجل (وأن لينين(٥٩) وماوتسى تونـج(٦٠) قد أخذاه عن انجلز) • يقول هيجل فى كتابه « علم المنطق » ، « يتحرك الشىء لا لانه هنا فى لحظة زمنية وهناك فى أخرى لكن لانه فى نفس اللحظة الزمنية هنـا وليس

هنا ، وفى هذه الهنا يكون ولايكون معا٠ علينا أن نعترف للديالكتيكيين القدامى بالتناقضات التى أثبتوها فى الحركة ٠ لكن ليس ما ينتج عن هذا أن ليس هناك حركة بل أن الحركة هى التناقض الموجود ذاته »(٦١) ٠ ويقول انجلز « الحركة نفسها تناقض : حتى التغير الميكانيكى البسيط فى الموضع يمكن أن يتأتى فقط من خلال أن يكون الجسم فى نفس الحظة الزمنية فى مكان ما وفى مكان آخر معا ، أن يكون فى مكان بعينه وأيضا لا يكون فيه ٠ والحركة على وجه الدقة هى التولد المستمر لهذا التناقض والحل الآنى له »(٦٢) ٠

قدم الديالكتيكيون القدامى الذين يتحدث عنهم هيجل وعلى رأسهم زينون (أو زينو) الايلى (نحو ٤٩٠ ــ ٤٣٠ قبل الميلاد.) محاولات بارعة (لكننا نعرف الآن أنها خاطئة) للبرهان على أن القبول بأن هناك حركة (ميكانيكية) يؤدى الى تناقض منطقى ٠ ولما كان زينون يظن أنه قد قدم براهين صحيحة وليس مجردمحاولات بارعة خاطئة ، ولما كان يرفض التناقض المنطقى ، فقد رفض قبول أن هناك حركة ٠ وجاء هيجل بفلسفة لا تقوم دون قبول أن هناك حركة ٠ وبالتالى كان عليه أن يسير فى أحد طريقين : : اما أن يفند محاولات زينون (وبالتالى يمكنه أن يرفض التناقض المنطقى ويقبل أن هناك حركة) أو أن يقبل هذه المحاولات ويقبل معها أن هناك حركة ويقبل أيضا التناقض المنطقى ٠ وقد سار هيجل فى الطريق الثانى وهو نفس الطريق الذى سار فيه انجلز أيضا ٠ ما الذى أدى بهما الى السير فى هذا الطريق ؟ سنحاول اجابة هذا السؤال بالنسبة الى انجلز ٠

كان انجلز يعرف أن ذلك الفرع من الرياضيات المسمى بالتفاضل والتكامل (كان حتى عصره يسمى حساب التفاضل والتكامل أو حساب الكميات المتناهية فى الصغر) يلعب دورا أساسيا فى دراسة الحركة ٠ فهو يقول « للمرة الاولى يجعل حسب التفاضل من الممكن

للعــــلم الطبيعى أن يمثل رياضيا **العمليـــات** وليس فقط الاحوال : الحـركة »(٦٣) ٠

تبلور حساب التفاضل والتكامل،بعد ارهاصات طويلة ، فى الثلث الاخير من القرن السابع عشر (نحو ١٦٧٠) على أيدى نيوتن وليبنتز ٠ وبالرغم من النتائج الباهرة التى حققهـا منذ ذلك الوقت ٠ فلم يــكن قائما على أساس مقبول ٠ كان الغموض يكتنف كثيرا من مفاهيمه ، بل كانت الطرق المعتمدة فيـــه قائمة على تنـــاقض منطقى (وان كان استخدامها بانتقاء وحكمة ، كثيرا مايؤدى الى نتائجصحيحة ومفيدة) ٠ وقد شعر الرياضيون والفلاسفة بمشكلات الغموض والتناقض هـذه منذ البداية ٠ وقد بدأت محاولات التغلب على هـذه المشكلات تؤتى ثمارها فى عام ١٨٢١ ٠ وبحلول عام ١٨٧٢ كان هناك أساس مرضى للتفاضل والتكامل ليس فيه تناقضات منطقية معروفة(٦٤) ٠ وبهذا صار من الممكن لاول مرة تفنيد محاولات زينون الايلى وقبول أن هناك حركة دون قبول التناقض المنطقى ٠

كان انجلز معجبا بالتفاضل والتكامل أيما اعجاب ٠ فقـد قال « بين كل ما أحـرز من تقدم نظرى ليس هنـاك بالتأكيد ما يسمو ، كانتصار للعقل البشرى الى مرتبة اكتشاف حساب الكميات المتناهية فى الصغر فى النصف الاخير من القرن السابع عشر ٠ فلدينا هنا – ان كان لدينا على الاطلاق – انجاز للذكاء البشرى رائع خالص لا مثيـل له »(٦٥) ٠ وقـد كان انجـلز مدركا بعض المشـكلات التى أحاطت بالموضوع ٠ لكنـه لم يكن على علم بما قدم لها من حلول وما بنى على هذه الحلول من تفنيد لمحاولات زينون الايلى ٠ أو هو على الاقل لم يكن على علم بهذه الامور حـين كان يكتب مسودات كتاب ديالكتيك الطبيعة حوالى عام ١٨٨٥(٦٦) ٠ فهو يقول فى هذا الكتاب «**والغموض** الذى يحيط **حتى اليـوم** بالمقـادير المستخدمة فى حســاب الـكميات المتناهية فى الصـــغر ، التفاضلات ، المـالا نهايات من الـــدرجات المختلفة ٠٠٠»(٦٧) ٠

وليس هذا بالامر الغريب • فعملية انتشار منجزات العلم كانت ابطأ فى القرن الماضى منها فى قرننا هذا ، نظرا لبطء وسائل الانتقال والاتصال وتخلف وسائل الاعلام بصفة عامة • ولذا فالنظرة التى كانت سائدة فى عصر انجلز (بين غير المتخصصين على الاقل)للتفاضل والتكامل والتناقض (المنطقى) لم تكن قد تأثرت كثيرا بمنجزات ١٨٢١ - ٧٢ • وتبعا لهذه النظرة فالتناقض (المنطقى) لا غنى عنه لحساب التفاضل والتكامل ومن ثم لدراسة الحركة • وهكذا نرى أنه لم يكن هناك ما يدعو انجلز الى التردد فى قبول هذا التناقض • بل ان اعجاب انجلز الشديد بحساب التفاضل والتكامل وادراكه لاهميته البالغة كانا - فيما يبدو - يدفعانه دفعا الى قبول هذا التنقاض واعتباره أحد السمات الاساسية للديالكتيك واعتبار التفاضل والتكامل تطبيقا للديالكتيك فى مجال الرياضيات •

وهكذا - فى نظر انجلز - يتفوق الديالكتيك على المنطق الشكلى ، كما يتفوق التفاضل والتكامل على الرياضيات الاولية العاجزة عن دراسة الحركة والتى تحترم المنطق الشكلى • يقول انجلز « حتى المنطق الشكلى هو أولا طريقة للتوصل الى نتائج جديدة ، للتقدم من المعروف الى غير المعروف - والديالكتيك بالمثل ، فقط هو كذلك يتفوق اكثر بكثير جدا ، وحيث أنه فضلا على ذلك يقتحم طريقه أبعد من الافق الضيق للمنطق الشكلى فهو يحوى جرثومة نظرة أشمل وأوضح للعالم • نفس العلاقة المتبادلة توجد فى الرياضيات • فالرياضيات الاولية ، رياضيات الكميات الثابتة ، تتحرك فى حدود المنطق الشكلى ، بصفة عامة على أية حال • ورياضيات المتغيرات التى يشكل حساب الكميات المتناهية فى الصغر أكثر أجزائها أهمية هى فى الجوهر ليست الا تطبيقا للديالكتيك على العلاقات الرياضية • فيها مشكلة البرهان البسيطة تدفع بالتأكيد الى الخلفية بالمقارنة مع التطبيق المتعدد الجوانب للطريقة على مجالات البحث الجديدة • لكن كل براهين الرياضيات العليا تقريبا ، ابتداء من أول براهين حساب التفاضل

فصاعدا هى على وجـه التحديد خاطئة من وجهـة نظر الرياضيات الاولية ٠ وهذا بالضرورة كذلك ، عندما ، كما يحدث فى هـذه الحال ، تبذل محاولة للبرهان بالمنطق الشكلى على نتائج حصل عليهـا فى مجال الديالكتيك »(٦٨) ٠

هذه هى جذور علاقة التناقض المنطقى بالديالكتيك ٠ وتجاهلها ـ فضلا على أنه سلوك غير ماركسى ـ لن يخدم الفلسفة الماركسية ٠ كما أنه لا يجوز حصر المشكلة فى تنقية الفلسفة الماركسية ، كما تركها انجلز ، من التناقضات المنطقية المعروفة ، وهـذا ممكن وان كان غالبا سيؤدى الى أكثر من بديـل ٠ فدراسة الحركة أو التغير بصـفة عامة كانت احدى اهتمامات انجلز الاساسية ، وعلى من يريد أن يسير فى طريقه حقا أن يستفيد من رياضيات وعلوم العصر فى دراسة الحركة والتغير،محاولا تطوير النظريات والوسائل المستخدمة ، واكتشاف ماقد يكون مشتركا من سمات التغير فى المجالات المختلفة ٠ عليه أن يفعـل هذا غير مقيـد بقيود عصر انجلز ولا بما حصله انجلز من رياضـيات وعلوم عصره(٦٦) ٠ نذكر هنا محاولة فى هذا الاتجاه قام بها أوسكار لانج ونشر عنها فى كتابه « الكلات(٦٩) والاجزاء ، نظرية عامة لسلوك المنظومات »(٧٠) ٠ سنعود الى هـذه المحاولة فيما بعـد ٠ أما الآن فننتقل الى مشكلة الصيرورة ٠

٨ ـ انجلز والصيرورة

الصيرورة من أهم ما طورته الفلسفة الماركسية من الجوانب الثورية للفلسفة الهيجلية ٠ فالفلسفة الهيجلية « وجهت مرة والى الابد ضربة قاتلة لنهائية كل نتاج الفكر والفعل الانسانيين ٠ فالحقيقة التى تشتغل الفلسفة بالتعرف عليها لم تعد على يدى هيجل ، تجمعا من العبارات الدوجماتيكية المنتهية ، التى ليس عليها ، بعد أن تكتشف الا أن تتعلم عن ظهر قلب ٠ الحقيقة توجد الآن فى عملية التعرف نفسها فى التطوير التاريخى الطويل للعلم الذى يصعد من المستويات الدنيا للمعرفة الى مستويات أعلى دائما ، دون أن يصل أبدا ، باكتشاف ما يسمى بالحقيقة المطلقة ، الى نقطة لا يستطيع أن يتقدم بعدها ، فلا يملك الا أن يعقد يديه ، وينظر مشدوها الى الحقيقة المطلقة التى توصل اليها ٠ وما يصلح لمجال المعرفة الفلسفية يصلح أيضا لمجال أى نوع آخر من المعرفة ، وأيضا للفعل العملى ٠ وتماما كما أن المعرفة لاتستطيع أن تصل الى نهاية أخيرة ، فى ظرف مثالى كامل للانسانية، فان التاريخ كذلك لا يستطيع أن يفعل ذلك ، المجتمع الكامل« الدولة » الكاملة ، أشياء يمكن أن توجد فقط فى الخيال ٠ على النقيض من ذلك،كل النظم التاريخية المتعاقبة هى فقط مراحل عابرة فى الطريق غير المنتهى لتطور المجتمع الانسانى من الادنى الى الاعلى ٠ كل مرحلة ضرورية وبالتالى فهى مبررة للوقت والظروف التى ترجع اليها نشأتها ٠ لكنها تفقد شرعيتها ومبرراتها فى مواجهة الظروف الاعلى الجديدة التى تنمو فى رحمها هى نفسها ٠ عليها أن تفسح الطريق لمرحلة أعلى ستتحلل وتموت بدورها أيضا ٠ وتماما كما أن البرجوازية تحل عمليا ، عن طريق الصناعة ذات النطاق الكبير والمنافسة والسوق العالمية ، كل

المؤسسات المستقرة المحترمة على مر الزمن ، فان الفلسفة الديالكتيكية كذلك ، تحل كل مفاهيم الحقيقة المطلقة النهائية ، ومايناظرها من أحوال مطلقة للانسانية • بالنسبة اليها (الفلسفة الديالكتيكية) لا شئ نهائى، مطلق، مقدس • انها تكشف الطابع العابر لكل شىء ، وفى كل شىء • لا يستطيع أن يصمد أمامها شىء الا العملية غير المتقطعة للصيرورة والموت ، للصعود غير المنتهى من الادنى الى الاعلى • والفلسفة الديالكتيكية نفسها ليست أكثر من مجرد انعكاس هذه العملية فى الذهن المفكر • ان لها بالتأكيد جانبا محافظا أيضا ، فهى تعترف بأنه لمراحل معينة للمعرفة والمجتمع ما يبررها فى زمنها وظروفها ، لكن الى هذا المدى فقط • محافظة هذا النمط من وجهات النظر نسبية • أما طابعها الثورى فهو مطلق ـ المطلق الوحيد الذى تتقبله الفلسفة الديالكتيكية »(٧١) •

تبعا لهذه النظرة ، لا يجوز أن يفهم العالم على أنه « مركب من الاشياء الجاهزة الصنع ، بل كمركب من **العمليات** »(٧٢) • والانسان جزء من العالم وبالتالى لا يجوز أن ننظر اليه ككائن جاهز الصنع بل كصائر متطور • والتطور ، فيما يتعلق بالانسان ، ليس عملية جرت فى الماضى السحيق وانتهت منذ آلاف السنين بظهور الانسان (العاقل ـ هوموسابيينز) • فاذا لم يكن الانسان قد تطور تطورا تشريحيا (يذكر) فى العشرة آلاف سنة الاخيرة فقد تطور فى نواح عديدة شملت الجماعة والفرد (الذى ينتمى الى الجماعة) • فالبشر بتفاعلهم مع الطبيعة ومع بعضهم البعض لم ينشئوا ويطوروا التكنولوجيا وشئون الاقتصاد والاجتماع واللغة والثقافة والحضارة و ••• فحسب ، بل طوروا أنفسهم أيضا • تطور استخدام الانسان ليديه وعينيه ، نشأت وتطورت مقدرة الانسان على التصور والتحليل والربط والتجريد ، نشأت وتطورت نظرة الانسان الى الزمان والمكان ، والى الطبيعة ، والى نفسه وغيره من البشر ، والى ما هو عادى (أو بديهى) ، وما هو غريب ، وما هو جميل ، وما هو ممتع ، والى الملكية والزواج • نشأ

وتطور سلوك الانسان واستجاباته للمؤثرات الخارجية ولما يعتمل بداخله ، نشأ وتطور كثير مما يعتبره البعض « غرائز » أو طبيعة بشريـــة ٠

وعلى هذا فـ « تقديس الانسان المجرد الذى شكل قلب دين فيورباخ الجديد يجب أن يحل محله (فلسفة) وعلم الناس الحقيقيين فى تطورهم التاريخى »(٧٣) ٠

والفلسفة والعلم ـ كما سبق ـ هما أيضا صائران متطوران على مر التاريخ ٠ بالانطلاق من وجهة النظر هذه « يكف السعى وراء الحلول النهائية والحقائق الخالدة مرة والى الابد ٠ فالمرء دائما واع للقصور الضرورى لكل المعرفة المكتسبة ، لحقيقة أنها متأثرة بالظروف التى اكتسبت فيها »(٧٤) ٠ وعلى هذا فيحسن بنا أن نحرر أنفسنا من النظر الى الفلسفة كنسق وسع بالفعل كل شىء : من الانسان الى الطبيعة الى ما وراء الطبيعة الى غير ذلك ، واضعا اياه فى موضعه الصحيح ، موضحا كل الاساسيات والعموميات والمناهج والمعايير التى ليس على الناس الا أن يتبعوها للوصول الى الفرعيات والخصوصيات ٠ هذه النظرة الى الفلسفة ، التى كانت شائعة فى القرن الماضى والتى لا تزال تسيطر على بعض الاذهان حتى الآن ، لا تعنى الا أن « ينجز الفيلسوف الفرد ذلك الذى لا يمكن أن ينجزه الا الجنس البشرى كله فى تطوره التقدمى ـ متى أدركنا هذا ، تكون هناك نهاية لكل الفلسفة بمعنى الكلمة المقبول حتى الآن »(٧٥) ٠

هذا لا يعنى نهاية الفلسفة ٠ أنه يعنى فقط نهاية المذهب الفلسفى (أو غير الفلسفى) الكامل النهائى الذى علينا أن نعتنقه أو نعتقده أو نؤمن به ، ليحل محله النسق الفلسفى المؤقت الذى نقبله (مؤقتا) لنطوره ونتخطاه٠لنحاول بناء نسق «مناسب لزماننا»(٧٦) ، بينما « على شكله أن يدمر خلال النقد ، فعلى المحتوى الجديد الذى

اكتسب من خلاله أن ينقذ »(٧٧) • وعلى هذا فالفلسفة فى تطورها تمر بأنساق مختلفة • ومن الخطأ أن نخلط بين فلسفة ما وبين لحظة من لحظاتها أو طـــور من أطوارها أو نســق من أنساقها أو شــكل من أشــكالها •

هــذا القول ينسحب على الفلسفة المــادية كمــا ينسحب على غيرها من الفلسفات • وقــد أخذ انجلز على فيورباخ أنه « يخلط بــين المــادية التى هى نظرة عامة الى العالم،معتمدة على مفهوم محددللعلاقةبين المادة والعقل ، والشكل الخاص الذى صيغت فيه هذه النظرة الى العالم ، الى العالم ، فى مرحلة تاريخية محددة هى القرن الثامن عشر • أكثرمنذلك، هو (أى فيورباخ) يخلطها مع الشكل السوقى الضحل الذى تستمر مادية القرن الثامن عشر فى الوجود عليه اليوم فى رؤوس الطبيعيين والطبيين • الشكل الذى بشر به بوخنر وفوجت ومولسكوت فى جولاتهم فى الخمسينيات (من القــرن التاسع عشر) • لكن كمــا أن المثاليــة تعرضت لسلسلة من مراحــل التطور فقــد فعلت المــادية نفس الشىء أيضا • ومع كل اكتشاف يبدأ عصرا جديدا ، حتى فى مجــال العلوم الطبيعية ، عليها أن تغـير شكلها • وبعد أن تعرض التاريخ للعــلاج المــادى فقد فتح طريق جديد للتطور هنا أيضا »(٧٨) •

وعلى هذا فعلى الماديين المعاصرين أن يطوروا المادية ، وألا يقنعوا بالشكل الذى تركها عليه انجلز ، لايرون فى تطور العلوم الا تأكيدا لهذه العبارة أو تلك من عبارته • عليهم ألا ينحدروا الى ما انحــدر اليــه سوقيو القرن التاسع عشر ، الذين قال فيهم انجلز «انهم فى الواقع ، لم يجعلوا من مهامهم أبـــدا أن أن يطــوروا النظــرية الى الامام على الاطلاق »(٧٩) • فالانحدار أو التحلل أو الجمود ليس من المــاركسية فى شىء • والدفاع عن مثل هذا السلوك باسم العمال دفاع باطـــل فـ « على العكس كلمــا يسير العلم (والفلسفة) منزها عن الغــرض غير مشفق على شىء وجـــد نفسه متوافقا أكثر مع مصـــالح وآمال العمـــال »(٨٠) •

اذا كان هــذا هو رأى الفلسفة المــاركسية فى الصــيرورة فهــل الماركسية نفسها صائرة ؟ الجواب نعم رغم ما عانت من جمود وتحلل فى العصر الستالينى(٨١) ، الامر الذى يدعو الآن الى مضاعفة الجهود ٠

صيرورة الماركسية يمكن أن تستشف (لو جزئيا) من ملاحظاتنا السابقة ٠ أيضا سنسوق فيما يلى أمثلة تلقى مزيدا من الضــوء على هــذه الصيرورة ، وبالتالى على معايرة المــاركسية بمعيارنا الثالث : الانعكاس الذاتى ٠

٩ ـ الاستعمار وحق تقرير المصير :
من ماركس وانجلز الى لينين وستالين

كان السائد فى أوربا والولايات المتحدة الامريكية فى القرن الماضى (والى حد ما حتى الآن) أن الاستعمار واجب انسانى يتجشم الرجل الابيض فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها المشاق من أجل أدائه خدمة خالصة لوجه الانسان البربرى الهمجى فى الهند ومصر والبرازيل وغيرها • لم يكن ماركس وانجلز يقبلان هذا الرأى البرجوازى • فماركس يقول « ان اكتشاف الذهب والفضة فى أمريكا واستئصال السكان الاصليين واستعبادهم ودفنهم أحياء فى المناجم ، وبدايات الاستيلاء على الهند الشرقية(٨٢) ونهبها وتحويل أفريقيا الى مزرعة للصيد التجارى لذوى الجلد الاسود ، قد ميزت الفجر الوردى لعصر الانتاج الرأسمالى • هذه الاجراءات الشاعرية، هى الزخم الرئيسى للتراكم البدائى • فى عقبة جاءت الحرب التجارية بين الامم الاوربية التى كانت الكرة الارضية مسرحها • أنها تبدأ بانشقاق هولندا على أسبانيا وتكتسب أبعادا هائلة فى حرب انجلترا ضد اليعاقبة ، ولا تزال مستمرة فى حروب الافيون ضد الصين وهكذا »(٨٣) •

وقد نشر ماركس فى الخمسينيات من القرن الماضى مجموعة من المقالات فى جريدة النيويورك دايلى تريبيون الامريكية تحدث فيها عن سياسة بريطانيا فى الهند والصين وغيرها ، وربط هذه السياسة بالمصالح البريطانية • هذه المقالات تساعد على توضيح آراء ماركس وانجلز فى قضية الاستعمار وحق تقرير المصير •

يقول ماركس « أقيم التمويل الهندى للحكومة البريطانية ، فى الحقيقة ، معتمدا ليس على تجارة الافيون مع الصين ، بل على الطابع التهريبى لهـــذه التجارة • ولو أن الحكومة الصينية جعلت تجـارة الافيون شرعيـــة وتسامحت فى نفس الوقت فى زراعة الخشخاش فى الصين ، لعانت الخزينة الانجليزية ـ الهندية من كارثة خطيرة؛ فبينما تدعو بريطانيا جهرا الى حرية الاتجار فى السم ، تحمى سرا احتكار صناعته • أينما ننظر عن قرب الى طبيعة التجارة الحرة البريطانية ، غالبا ما يوجد الاحتكار فى قاع هذه «الحرية» »(٨٤) •

وعن أعمال العنف يقول « و ورد من بيندى نبـأ يفيد أن ثلاثة زعماء محليين يحضرون مؤامرة • وردا على هذا ، أمر السير جون أورنس بارسال جاسوس اليهم سرا أثناء لقائهم • وحين تلقى السير جون اخبارية الجاسوس أرســل أمرا ثانيا : « يجب شنقهم » • فشنقوا الزعماء • وقد كتب موظف مدنى من الله آباد يقول « فى أيدينا سلطان على الحياة والموت ، ونتجاسر على أن نؤكد لكم أننا نتصرف بلا شفقة ولا رحمة » • ويفيد موظف آخر من المحلة نفسها « لا يمر يوم دون أن نشنق عشرة أو خمســة عشر منهم (أى من الســكان الآمنــين) » • ويكتب أحـد الضباط بابتهاج : « يا للشــاطر هولمس ! أنه يشنقهم بالدرزينات! »(٨٥) • ويلاحظ آخر، قاصدا شنق مجموعة كبيرة من السكان المحليين بدون تحقيق أو محاكمة : « هنا لهونا وأى لهو ! » • وكتب ثالث يقول « نحن نعقـد محكمة عسكرية دون أن ننزل عن ظهــور خيولنا ، وكل أسود الجلد تقع عيوننا عليه أما أن نشنقه واما أن نعدمه رميــا بالرصــاص »(٨٦) •

وقـد كان فى الهنـد قبل الاستعمار البريطانى ثلاثة دواوين : للاشغال العامة والمـالية والحربية • « والآن أخـذ البريطانيــون فى الهنـد الشرقية عن أسلافهم ديوانى المـالية والحربية • لكنهم أهملوا كليا ذلك الخاص بالاشغال العامة • ومن ثم انحطاط زراعة غير قادرة

على أن تدار على أساس المبدأ البريطاني للمنافسة الحرة،مبدأ دعه يعمل دعه يمر »(٨٧) ٠ والامر يتعدى الاهمال الى اتخاذ الاجراءات التى تخدم المصالح البريطانية ، فـ « الزمندارية والرياتفارية كانتا معا ثورتين زراعيتين ، تحققتا بالاوامر البريطانية وعارضت كل منهما الاخرى ٠ احداهما أرستوقراطية والاخرى ديموقراطية ، احداهما مسخ للملكية الانجليزية للارض ، والثانية للكية الفلاحين الفرنسية ، لكن كلتيهما مصيبة تجمع أكثر الصفات تناقضا ــ كلتاهما وضعت لا لاجل الناس الذين يفلحون الارض ، ولا لأجل واضعى اليـد الذين يملكونها ، لكن لأجل الحكومة التى تفرض عليها الضرائب »(٨٨) ٠

لكن المصالح يمكن ان تتغير كما يمـكن أن تتعـارض ٠ يقـول ماركس « لم يكن للطبقات الحاكمة فى بريطانيا العظمى ، حتى الآن ، الا اهتمـام استثنائى عابر غير مقصود بتقـدم الهنـد ٠ أرادت الارستوقراطية اخضاعها وأراد رجال المـال نهبها وأراد رجال الصناعة بيعها بثمن بخس ٠ لكن الامور تغيرت الآن ٠ فقـد اكتشف رجـال الصناعة أن تحويل الهنـد الى بلد منتج قـد صار ذا أهمية حيوية لهم وانه لتحقيق هذا الهدف،فمن الضرورى فوق كل شىء أن تمنحها وسائل للرى والاتصال الداخلى ٠ وهم يعتزمون الآن تخطيط شبكة من السكك الحديدية فى الهنـد ٠ وسيفعلون هـذا ٠ ولا بد للنتـائج أن تفـوق التقـدير »(٨٩) ٠

وبالرغم من هـذا فالامور لا تسير فى اتجـاه واحـد ٠ بل انه فى رأى كارل ماركس « يتعين على انجلترا أن تؤدى رسالة مزدوجة فى الهنـد : احداهما هدامة والاخرى بناءة ــ القضاء على المجتمع الآسيوى القـديم وارساء الاسس المـادية لمجتمع غربى فى آسيا »(٩٠) ٠ ويقول ماركس « ان الصناعة الحديثة الناتجة عن شبكة السكك الحـديدية ستحل التقسيمات الوراثية للعمل التى ترتكز عليها الطبقات الهنـدية العنصرية ، تلك المعوقات الحاسمة لتقـدم الهنـد وقوتها »(٩١) ٠

ويقول أيضا « ان الوحـدة السياسية للهنـد ، المدعمة أكثر والآخـذة فى الامتداد أكثر مما فعلت فى أى وقت منذ أن كانت تحت المغول العظام، كانت الشرط الاول لميلادها الجديد • فالوحـدة التى فرضهـا السيف البريطانى ، ستقوى الآن وتدوم ، بالتلغراف الكهربى • والجيش المكون من السكان المحليين ، والمنظم والمدرب بالرقباء المدربين البريطانيين ، كان الشرط الذى لا غنى عنه لتحرر الهنـد الذاتى ولتكف عن أن تكون ضحية لاول غاز أجنبى • والصحافة الحرة التى أدخلت لاول مـرة فى مجتمع أسيوى والتي تدار أساسا بواسطة الابناء المشتركين للهنـود والأوربيين هى عامل جـديد وقوى لاعادة البناء • وحتى **الزمنـدارية والرياتفارية**،على سوئهما الشـديد ، تتضمنان شكلين مختلفين للملكية الخاصة للارض ، الامر الذى يحتاج اليه المجتمع الآسيوى احتياجـا شديدا • ومن بين الاهالى الهنود الذين يلقون العلم ، بتردد ، وتقتير فى كلكتا تحت الاشراف الانجليزى تأخـذ طبقة جديدة فى الظهور مكتسبة متطلبات الحكم ومشبعة بالعلم الأوربى »(٩٢) •

ومن نتائج التدخل الانجليزى فى الهنـد أنه « حل هذه الجماعات الصغيرة نصف البربرية نصف المتمدينة ، بتدمير أساسها الاقتصادى وبذلك أحدث أعظم ثورة اجتماعية ، بل لنقل الحقيقة الثورة **الاجتماعية** الوحيدة على الاطلاق التى سمع عنها فى آسيا »(٩٣) • ويضيف ماركس « مهما كان من المؤذى للشعور الانسانى أن نشاهـد تلك التنظيمات الاجتماعية الدؤوبة الأبوية المسالمة البالغة الكثرة ، مفككة ومنحلة الى مكوناتها وملقاة فى بحر من الشقاء أعضاؤها الافراد فاقدون فى وقت واحـد شكل حضارتهم القـديم ووسائل عيشهم المتوارثة ، فعلينـا ألا ننسى أن هـذه الجماعات القروية البسيطة الشاعرية ، مهما تبدو مسالمة ، قـد كانت دائما القاعدة الصلبة للاستبداد الشرقى وأنها قيدت العقل البشرى فى أضيق اطار ممكن جاعلة منه أداة طيعة للشعوذة ، مستعبدة اياه تحت أحكام التقاليد ، حارمة اياه من كل عظمة ومن كل الطاقات التاريخية • علينا ألا ننسى الذاتية البربرية التى تشـاهد

بهـدوء ـ وهى مركـزة على قطعـة بائسـة من الارض ـ خـراب الامبراطوريات وارتكاب ما لا يمكن وصفه من العنف وابادة سـكان مدن كبيرة دون أن تعير هـذا أى اعتبار أكثر من الاعتبار الذى تعيره للاحداث الطبيعية ، وهى نفسها الضحية العاجزة لاى معتد يتفضـل بالالتفات اليها على الاطـلاق »(٩٤) ٠

ويخلص ماركس الى أن « انجلترا كانت ـ حقيقة ـ فى تسببها فى ثورة اجتماعية فى هندوستان ، مدفوعة بأخس المصالح ، وكانت غبية فى أسلوب فرضها لهذه المصالح ٠ لكن ليست هـذه هى المشـكلة ٠ المشكلة هى : هل يمـكن للجنس البشرى أن يحقق غايتـه دون ثورة أساسية فى الحال الاجتماعية لآسيا ؟ اذا كان الجواب بالنفى ، فقـد كانت انجلترا ـ مهما كانت جرائمها ـ الأداة غير الواعية للتاريخ فى احداث هـذه الثورة »(٩٥) ٠ اذن فالمشكلة ليست مشـكلة نوايا ٠ ويمكن أن يكون للاعمال المدفوعـة بأخس الدوافع بعض النتـائج الايجـابية ٠

وفيما يتعلق بالصين يقول ماركس « كل هـذه العوامل المحللة التى أثرت مجتمعة على الاحوال المـالية والمعنوية والصناعيـة وعلى البناء السياسى للصين ، حصلت على تطورها الكامل فى ١٨٤٠ تحت المدافع الانجليزية التى قوضت سلطة الامبراطور وأجبرت امبراطورية السماء على لقـاء العالم الارضى ٠ كانت العزلة الكاملة الشرط الاول للحفاظ على الصين القديمة ٠ أما وقـد انتهت تلك العزلة الى نهـاية عنيفة بواسطة انجلترا ، فان الانحلال يجب أن يتلو بالتأكيد ، تماما كما تنحل أية مومياء محفوظة بعناية فى تابوت بمعزل عن الهواء ، عندما تتعرض للهواء الطلق »(٩٦) ٠ وتعليقا على الانتفاضة الفلاحية التى قامت فى الصين عام ١٨٥١ بعـد حرب الافيون الاولى (١٨٤٠) وبعـد أن أخذت سلطة الامبراطور وأعوانه فى التناقض ، يقول ماركس « يبدو أنه كما لو كان على التاريخ أن يجعل هـذا الشعب مسمما بأكمله أولا ، قبل أن يستطيع ايقاظهم من غبائهم المتوارث »(٩٧) ٠

أما عن عرابى والحركة العرابية فى مصر فيقول انجلز فى رسالته الى برنشتين المؤرخة فى ١٨٨٢/٨/٩ « يبدو لى انك فيما يتعلق بالمسألة المصرية تقدر أكثر من اللازم ما يسمى بالحزب الوطنى • نحن نعرف قليلا عن عرابى ، لكننى مستعد للرهان عشرة الى واحد أنه باشا عادى لا يريد أن يعطى رجال المال حق جباية الضرائب لانه تبعا لتقليد شرقى قديم يفضل أن يضع الضرائب فى جيبه الخاص »(٩٨) • وبعد أن يتحدث انجلز عن مأساة الشعوب الفلاحية وعن أوهام الفلاحين وأوهام الثوريين اللاتين ويعرب عن رضاه عن عدم الاعتراف بديون الخديو ، يقول «أرى أن بامكاننا أن نكون كليا الى جانب الفلاحين المقهورين ، دون أن نشاطرهم الاوهام التى يغذونها فى نفس الوقت (على الشعب الفلاحى أن يخدع لمئات السنين قبل أن ينتبه الى ذلك بالخبرة) ، وأن نكون ضد العنف الانجليزى دون أن نأخذ أبدا جانب أعدائهم العسكريين الراهنين »(٩٩) •

وهكذا لم يكن ماركس وانجلز ينظران الى الاستعمار نظرة أخلاقية مجردة • ولم يكونا يريان فيه شرا خالصا ولا خيرا خالصا ، فبالرغم من عنفه وشراسته وتخريبه ودوافعه الخسيسة كان يؤدى فى المستعمرات « رسالة » مزدوجة : هدم قلاع التخلف و « الاستبداد الشرقى » ، وبناء الاصول المادية ، والى حد ما البشرية ، لمرحلة جديدة فى تطور الانسانية •

لكن «كل ماقد تضطر البرجوازية الانجليزية الى صنعه (فى الهند) لن يحرر جماهير الشعب ولن يرأب ماديا حالها الاجتماعية التى لا تعتمد فقط على تطور الطاقات المنتجة بل على ملكية الشعب لها • لكن ما لن يفشلوا فى صنعه ، هو ارساء المقدمات المادية لكليهما • وهل فعلت البرجوازية ابدا أكثر من هذا ؟ هل أحدثت أبدا تقدما دون جر الافراد والشعوب فى الدم والوحل ، فى البؤس والمهانة ؟ •

لن يجنى الهنود ثمار العناصر الجديدة للمجتمع التى بذرتها البرجوازية البريطانية بينهم حتى تنتزع البروليتاريا الصناعية مكان الطبقات الحاكمة الآن فى بريطانيا العظمى، أو حتى ينمو الهندوس أنفسهم أقوياء بما يكفى لتحطيم القيود البريطانية كلية • على كل حال يمكننا باطمئنان أن نتوقع أن نرى فى فترة بعيدة الى حد ما ، احياء هـذا البلد العظيم والطريف الذى يقطنه أهل لطفاء هم ـ لنستخدم تعبير للامير سالتيكوف ـ حتى فى أدنى الطبقات « أنعم وأحذق من الايطاليين » • البلد الذى يوازن ، حتى خضوعه ، بضرب من نبل هادىء• الهنود الذين، رغم ضعفهم الطبيعى أدهشوا البريطانيين بشجاعتهم ، الذين كانت بلدهم منبع لغاتنا وأدياننا والذين يمثلون نموذج الألمانى القديم فى الجات ، واليونانى القديم فى البراهمى »(١٠٠) •

وعلى هـذا ففى رأى ماركس يكون تخلص شعوب المستعمرات من نير الاستعمار وجنيها ثمار ما زرعـه المستعمـر بينهـا من بذور التقـدم ، عن طريق :

١ ـ بروليتاريا الدول المستعمرة بعـد أن تتحرر هى أولا •

أو

٢ ـ أن تقوى هى بما يكفى لتحطيم قيود الاستعمار •

لم يوضح ماركس تصوره للعلاقة بين البروليتاريا المنتصرة وبين شعوب المستعمرات السابقة • لكن التطور التاريخى أعطانا صورة عملية لهذا ، فجزء كبير مما يشكل الاتحاد السوفيتى الآن ، كان من قبل مستعمرات تابعة لروسيا القيصرية •

سنعود الى هـذا فيما بعـد • أما فيما يتعلق بالبديل الثـانى

فعلينا ألا ننسى أن الامر عند ماركس لم يكن يقتصر على القضاء على الاستعمار بل يمتد أيضا الى جنى ما زرع • وليس واضحا بالضبط متى يمكن القول بأن هـذا الشرط الثانى قد تحقق • نقول هـذا على ضوء موقف انجلز من الحركة العرابية الذى يقابله تأييد كارل ماركس للانتفاضة الهندية عام ١٨٥٧ اذ يقول بعد ذكر بعض الوقائع « على ضوء هـذه الحقائق قـد يتوصل الناس المتبصرون غير المنحازين الى أن يسألوا اذا ماكان الشعب على حق فى محاولة طرد الفاتحين الأجانب ، الذين تعسفوا فى معاملة من هم تحت سيطرتهم الى هذا الحد »(١٠١) •

الى جانب المستعمرات وأشباه المستعمرات مثل الهند والصين ومصر وايران ، كانت هناك المستعمرات « بمعنى الكلمة » مثل استراليا ونيوزيلندا • وكانت هناك أيضا القوميات المتقـدمة المضطهـدة والمستعمرات ذات الشعوب المتقدمة (أو «المتمدينة» بلغة القرن الماضى) مثل ايرلندا والمجر وبولندا وفنلندا • سنعرف رأى انجلز فى المستعمرات « بمعنى الكلمة » بعـد قليـل • أما بالنسبة الى المستعمـرات ذات الشعوب المتقدمة فقد نالت ايرلندا من كارل ماركس عناية خاصـة لصلتها الوثيقة ببريطانيا • وقد تطور موقفه تجاهها ، كما يتضح من رسالته الى انجلز فى ١٨٦٧/١١/٢ ، حيث يقول « فى المـاضى كنت أرى أن انفصال ايرلندا عن بريطانيـا مستحيل • والآن أرى أنـه لا مناص منه وان كان قـد يعقب الانفصال اتحاد فيدالى »(١٠٢) • وفى ١٨٦٧/١١/٣٠ أرسل الى انجلز يقول :

« ما تحتاجه ايرلندا هو :

١ ـ الحكم الذاتى والاستقلال عن انجلترا ٠٠٠»(١٠٣) •

وفى عام ١٨٧٠ كتب ماركس « ان قرارات المجلس العام(١٠٤) بصدد العفو الايرلندى ، ليست سوى مقدمة لقرارات أخرى ، تؤكد أنه

بصرف النظر عن العدل الدولى ، فانه **شرط مسبق لتحرر الطبقة العاملة الانجليزية** ، أن يتحول **الاتحاد القسرى** الحالى (أى استعباد ايرلندا) الى **اتحاد كونفيدرالى حر متساو** ، ان أمكن ، أو الى الانفصال التام ان دعت الحاجة »(١٠٥) ٠ وبعد ذلك بقليل ، فى ١٨٧٠/٤/٩ يرسل ماركس الى ماير وفوجت قائلا «الوسيلة الوحيدة للتعجيل بها (أى الثورة الاجتماعية فى انجلترا) أن نجعل ايرلندا مستقلة »(١٠٦) ٠ ويضيف أنه يجب توعية العمال الانجليز بأن « التحرر الوطنى لايرلندا ليس **بالنسبة اليهم** ، مسألة عدل مجرد أو عاطفة انسانية ولكن **الشرط الاول لتحررهم الاجتماعى هم أنفسهم** »(١٠٦) ٠

هذا الانحياز الواضح لاستقلال ايرلندا وربط هذا الاستقلال بالثورة الاجتماعية هو الذى سيطوره لينين ويعممه فى المستقبل على كل المستعمرات بما فى ذلك « غير المتمدينة » و « نصف البربرية » ٠ لكن قبل أن ننتقل الى لينين نود أن نعود ثانية الى البديل الاول كما وعدنا من قبل ٠ لا يجوز أن نستنتج من هذا البديل أن الذهن كان خاليا مما يستفيده عمال الدول المستعمرة من المستعمرات ٠ فقد كتب انجلز الى كاوتسكى فى ١٨٨٢/٩/١٢ يقول « تسألنى ماذا يرى العمال الانجليز بشأن السياسة الاستعمارية ؟ حسنا ، تماما كما يرون بشأن السياسة بصفة عامة : كما يرى البرجوازيون ٠ لا يوجد هنا حزب عمال ، كما ترى ، يوجد فقط محافظون وليبراليون ـ راديكاليون ، والعمال يشاركون بابتهاج فى وليمة احتكار انجلترا لاسواق العالم وللمستعمرات »(١٠٧) ٠ ويضيف انجلز أنه يرى أن المستعمرات « بمعنى الكلمة » مثل كندا واستراليا وجنوب افريقيا ستستقل ٠ أما بالنسبة الى المستعمرات التى يقطنها الاهالى (سكانها الاصليون) مثل الهند والجزائر والممتلكات الهولندية والبرتغالية والاسبانية فيعيد انجلز ـ بوضوح أكثر قليلا ـ ما سبق أن قاله ماركس بشأن الهند منذ نحو ثلاثين عاما ٠ اذ يقول انه على عمال الدول المستعمرة أن

ينتزعوها ويقودها بأسرع ما يمكن الى الاستقلال ، وان كان من الصعب على انجلز أن يقول كيف ستتطور هـذه العملية • وبعـد هذا مباشرة يقول « من الجائز أن تقوم ، فى الحقيقة غالبا ما ستقوم الهنـد بثورة ، ولمـا كان لا يحق للبروليتاريا فى عملية تحررها الذاتى أن تقود أيـة حروب استعمارية،فعلىهذه الثورة أن يسمح لها بأخذ مجراها»(١٠٧)• ويضيف أن نفس الشىء يمكن أن يحدث فى أماكن أخـرى مثل الجزائر ومصر،وسيكون «بالتأكيد أفضل شىء **لنـا** »(١٠٧) ، فلدينا مايكفينا• و « عندما يعاد تنظيم أوربا وأمريكا الشمالية فان هـذا سيكون من عظم القوة وروعة المثل ، بما يكفى لكى تقتفى الدول نصف المتمدينة أثرها بنفسها،وستتكفلالحاجات الاقتصادية ، ان لم يكن أىشىءآخر، بهذا • لكن فيما يتعلق بالاطوار الاجتماعية والسياسية التى يتعين على هـذه الدول أن تمر خلالها قبل أن تصل بدورها الى النظـام الاشتراكى ، أظن أننـا نستطيع أن نقـدم اليوم مجرد فروض غـير مفيدة • هناك شىء واحـد مؤكد : لا تملك البروليتاريا المنتصرة أن تفرض أى أنواع السعادة على أية أمة أجنبية،دون أن تقوض انتصارها هى نفسها بفعلها هـذا • هـذا بالتأكيد لا يستبعد أبدا الحـروب الدفاعية بأنواعها المختلفة •••»(١٠٧) •

* * *

لنستعرض الآن آراء لينين وستالين فى المشكلات المطروحـة ، مستعينين بالصياغة التى قدمها ستالين فى كتابه « أسس اللينينية » وهو مجموعة محاضرات ألقيت فى جامعة سفردلوف بموسكو فى أوائل ابريـل ١٩٢٤ •

فيما يتعلق بمقـابلة المتمدينين بغير المتمدينين ، أو أنصـاف البرابرة أو البرابرة يقول ستالين « كانت المسألة الوطنيـة قديمـا محصورة عادة فى دائرة ضيقة من القضايا المتعلقة فى الدرجة الاولى

بالقوميات « المتمدينة » • الايرلنديون والمجريون والبولونيون والفنلديون والصرب وبعض قوميات أوربا الاخرى : تلك هى الفئة من الشعوب غير المتمتعة بكامل حقوقها ، التى كان أبطال الأممية الثانية يهتمون بمصيرها • أما عشرات ومئات الملايين من أبناء الشعوب الآسوية والافريقية الذين كانوا يعانون الاضطهاد الوطنى بأفظع أشكاله وأشدها شراسة فكانوا يظلون عادة خارج دائرة النظر • فلم يكن بالمستطاع الاقدام على وضع البيض والسود ، « المتمدينين » و « غير المتمدينين » على صعيد واحد • قراران أو ثلاثة قرارات فارغة ، مرة حلوة ، مسألة تحرير المستعمرات فيها مطموسة بمنتهى العناية ، ذلك كل ماكان فى استطاعة رجال الأممية الثانية أن يتبجحوا به • أما اليوم فيجب أن نعتبر أن هذا **الازدواج** وهذا **الغموض** فى المسألة الوطنية قد قضى عليهما ولم يبق لهما أثر • فقد كشفت اللينينية القناع عن هذا التفاوت الصارخ وهدمت الجدار الذى كان قائما بين البيض والسود ، بين الأوربيين والآسيويين ، بين أرقاء الاستعمار «المتمدينين» وبين أرقائه « غير المتمدينين » • وبهذه الصورة ربطت المسألة الوطنية بمسألة المستعمرات • وهكذا تحولت المسألة الوطنية من مسألة خاصة ، مسألة داخلية فى الدولة ، الى مسألة عامة ودولية ، الى مسألة عالمية ، هى مسألة تحرير الشعوب المضطهدة فى البلدان التابعة ، فى المستعمرات من نير الاستعمار »(١٠٨) •

وفى مشكلة التخلص من نير الاستعمار يقول ستالين « ان النضال الثورى للشعوب المضطهدة فى البلدان المستعمرة التابعة ، ضد الاستعمار هو الطريق الوحيد لتحررها من الاضطهاد والاستثمار »(١٠٩) • وبعد ربط حركة التحرر الوطنى بالحركة البروليتارية والتأكيد على ضرورة تكوين جبهة بينهما وعلى ضرورة تأييد الثانية للاولى يقول ستالين « ان هذا التأييد يعنى المطالبة بشعار حق الأمم فى الانفصال وفى العيش كدول مستقلة ، والدفاع عن هذا الشعار وتطبيقه »(١١٠) •

غير أن الانفصال أو الاستقلال ليس خاتمة المطاف حتى فيما يتعلق بسيطرة رأس المال العالمى على الدول • ففى « الثورة الاشتراكية وحق الامم فى تقرير المصير » يقول لينين « يستطيع رأس المال المالى فى سعيه الى التوسع ، أن يشترى أو يرشى « بحرية » ، أكثر الحكومات الديمقراطية أو الجمهورية تحررا والرسميين المنتخبين فى أية دولة حتى اذا كانت « مستقلة » • فلن يقضى على سيطرة رأس المال المالى ورأس المال عموما ، **بأية** اصلاحات فى مجال الديمقراطية السياسية ، وحق تقرير المصير ينتمى كلية الى هذا المجال وحده • لكن سيطرة رأس المال المالى هذه ، لا تلغى أبدا أهمية الديموقراطية السياسية **كشكل** أكثر حرية واتساعا ووضوحا للقهر الطبقى والصراع الطبقى »(١١١) •

وعلى هذا فالنظرة البروليتارية ترى أن معركة الاستقلال جزء من معركة أشمل • وترى « أن مطالب الديمقراطية المختلفة بما فيها حق الامم فى تقرير مصيرها بنفسها ليست شيئا مطلقا بل هى جزء من مجموع الحركة الديمقراطية (اليوم : الحركة الاشتراكية) العالمية • ومن الممكن ، فى بعض الحالات المعينة الملموسة ، أن يناقض الجزء الكل ، وفى هذه الحال يجب نبذ الجزء »(١١٢)• لندرك أهمية هذا يكفى أن نفكر فى انفصال الاكراد عن العرب فى العراق،أو الجنوبيين عن الشماليين فى السودان أو بيافرا عن بقية نيجيريا أو بنجلاديش عن باكستان • لكن علينا أن نعى أن هذا التحفظ الذى لا غنى عنه يمكن أن يساء استخدامه (فى تبرير حرمان الشعب الفلسطينى من حقه فى تقرير مصيره مثلا ! هل هذا هو ما فعله الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ وحتى الآن ؟) ولذا فقد يكون من المفيد النظر فى مثال يساعد على فهم المقصود (أو بالاحرى غير المقصود) بهذا التحفظ •

مثالنا هو موقف ستالين من الامير الافغانى والوفد المصرى (حاول استرجاع موقف انجلز من عرابى) • يقول ستالين « ان الصفة

الثورية للحركة الوطنية ، فى ظروف الاضطهاد الاستعمارى ، لا تستلزم بالضرورة وجود عناصر بروليتارية فى الحركة ، لا تستلزم أن يكون للحركة برنامج ثورى أو جمهورى ، لا تستلزم أن يكون لها أساس ديمقراطى • فنضال الامير الافغانى فى سبيل استقلال أفغانستان هو من الناحية الموضوعية نضال **ثورى** رغم الطابع الملكى لمفاهيم الاخير وأنصاره ، لان هذا النضال يضعف الاستعمار ويفكك أركانه ويقوضها • فى حين أن نضال الديمقراطيين « الاشاوش » و « الاشتراكيين » ، و « التوريين » والجمهوريين أمثال كيرنسكى وتسيريتللى ، رينوديل وشيدمان ، تشيرنوف ودان ، هندرسون وكلانيس ، أثناء الحرب الاستعمارية كان نضالا **رجعيا** لان نتيجته كانت تزيين وجه الاستعمار وتثبيت أقدامه وتحقيق انتصاره • ان نضال التجار والمثقفين البرجوازيين المصريين فى سبيل استقلال مصر ، هو لهذه الاسباب نفسها نضال **ثورى** من الناحية الموضوعية ، رغم الاصل البرجوازى لزعماء الحركة الوطنية المصرية ، ورغم صفتهم البرجوازية ورغم كونهم ضد الاشتراكية • فى حين أن نضال حكومة « العمال » الانجليزية لاجل ابقاء مصر فى حالة التبعية هو للاسباب ذاتها **رجعى** رغم الاصل البروليتارى والصفة البروليتارية لاعضاء هذه الحكومة ورغم كونهم « مؤيدين » للاشتراكية »(١١٣) •

* * *

عند لينين وستالين يبهت حتى ليكاد أن ينعدم،الحديث عن أية « رسالة » حضارية للاستعمار فى المستعمرات (بغض النظر عن النوايا أو اذا شئت رغم سوء النوايا) هذه الرسالة التى أبرزها كارل ماركس •

الدور الحضارى (سلبا أو ايجابا) للاستعمار فى المستعمرات فى حاجة الى بحث موضوعى متريث • وقد يكون من المفيد هنا أن نسوق ما لاحظه توفيق الحكيم (فى أهرام الجمعة ١٩٧٣/١٢/٧) من أن الطباعة ظهرت فى أوربا عام ١٤٥٦ وانتشرت فيها خلال ما تبقى من

القرن الخامس عشر • لكنها لم تصل مصر الا على أيدى **الحملة الفرنسية** مع دورة القرن الثامن عشر ولم تستقر فيها الا عند ما أنشأ محمد على مطبعة بولاق عام ١٨١٩ • وقد يكون من المفيد أن نسوق أيضا قول لينين « لا نستطيع أن نقول اذا ما كانت آسيا ستجد الوقت حتى تتطور الى منظومة من الدول القومية المستقلة مثل أوربا ، قبل انهيار الرسمالية ، لكنها تبقى حقيقة لا خلاف عليها أن الراسمالية وقد **أيقظت آسيا** ، استنفرت الحركات القومية فى جميع أنحاء تلك القارة أيضا ، وأن ميل هذه الحركات هو نحو خلق دول قومية فى آسيا وأن هذه الدول هى التى تضمن أفضل الظروف لتطور الرأسمالية »(١١٤) •

هذا لا ينفى أن ماركس وانجلز قد بالغا فى تقويم الدور الحضارى الايجابى للاستعمار ، ولا أنهما نظرا بتعال الى شعوب المستعمرات « البرابرة » (لعلهما كانا متأثرين فى هذا بفكر وحضارة عصرهما) • فالحركة العرابية كانت ـ على غير ما رأى انجلز ـ حركة وطنية ديمقراطية من ذلك النوع الذى حظى بتأييد ستالين فيما بعد • وأغلب الظن أن نجاحها كان حريا بتعجيل التطور الرأسمالى فى مصر • ويقال أن بدايات صناعات رأسمالية قد ظهرت فى الهند فى القرن السادس عشر لكن الاستعمار البريطانى طمسها • واليابان ، هل عاق تطورها الرأسمالى أنها لم تستعمر (قبل ١٩٤٥) ؟ يقول لينين بعد أن يذكر أن الجزء الاعظم من آسيا واقع تحت طائلة الاستعمار « لكن هل تهز هذه الظروف ، الشائعة معرفتها ، بأية طريق ، الحقيقة التى لا شك فيها ، القائلة بأنه فى آسيا نفسها ، خلقت ظروف أكمل تطورا للانتاج السلعى ، كما خلق أعرض ، وأسرع ، وأكثر نمو للرأسمالية حرية ، فى اليابان فقط ، أى فقط فى دولة قومية **مستقلة** ؟ »(١١٤) •

أيضا ، لم يكن معارضو لينين وستالين من زعماء الدولية الثانية أو روزا لكسمبورج أو غيرهم منقطعى الصلة بالماركسية • هذا ما لاحظته روزا لكسمبرج عندما قالت « عند بداية الحرب

[العالمية الأولى] أسرعت الاشتراكية الديمقراطية الالمـانية تزين حملة الاستعمـــار الالمـانى للنهب بدرع أيديولوجى من حجرة مخلفـــات الماركسية ، بأن أعلنت أنها حملة التحرير ضد القيصرية الروسية ، كما رغب فى ذلك بشدة معلمانا الشيخان (ماركس وانجلز) »(١١٥) • وهو ما لاحظه ستالين أيضا ، وان كان بطريقة ضمنية • فهو كما بينا عاليه يرجع فى كتابه أسس اللينينية فضل هدم الجدار الذى كان قائما عند رجال الاممية الثانية ، بين البيض والسود ، بين الأوربيين والآسيويين، بين أرقاء الاستعمار « المتمدينين » وبين أرقائه « غير المتمدينين » ، الى اللينينية وليس الى المـاركسية • وبهذا فهو يعتبره جديدا اضافته اللينينية • اذ أنه يقول فى أول كتابه المذكور « ان عرض اللينينيـة يعنى عرض ما هو خاص وجديد فى مؤلفات لينين وما أضافه لينين الى كنز المـاركسية العام وما هو بطبيعة الحال مقرون باسمه • بهـذا المعنى فقط سأتكلم فى محاضرتى عن أسس اللينينية »(١١٦) • بل يمكن القول أنه فى بعض الاحـوال ، بينمـا كان لينين أكثـر ماركسية من معارضيه بالمعنى الصيرورى للكلمة ، كانوا هم أكثـر منـه ماركسية بالمعنى الجامد لها ، أى اذا ما استبدلنا بالمـاركسية ذلك الطور الذى مرت به المـاركسية فى حياة ماركس وانجلز • أو لنستخدم كلمـات لينين (١١٧) كان هـو أقرب الى روح المـاركسية بينمـا كانوا هم أقـرب الى حرفهـا •

عـدم الالتفات الى هـذا الأمر ، أو عدم البيان الواضح الصريح لتخطى المـاركسية لهـذا الرأى أو ذاك من آراء ماركس أو انجـلز أو غيرهما يعنى طمس الوعى بصيرورة المـاركسية أو فهم هذه الصيرورة على أنها مجرد تراكم لاشياء تامة الصنع لا مجال لاعادة النظر فيها • هـذا الفهم الذى عارضه انجلز كما بينا عاليه •

هناك أمر آخر لا يجوز أن نغفله هو أن ماركس وانجلز ولينين وستالين لم يكونوا يعالجون نفس الشىء تماما • حقا لقد كانوا جميعا

يعالجون نفس الظاهرة (الاستعمار) • لكن فى مراحل مختلفة لتطورها • ففيما يتعلق بـ « العالم القديم » كانت أوربا هى المركز الرئيسى للحركات الاجتماعية والقومية فى القرن التاسع عشر (كانت هذه الحركات تتحرك نحو الشرق) • فى عام ١٩٠٥ انفصلت النرويج عن السويد وأثناء الحرب العالمية الأولى انتصرت الثورة البرجوازية الديمقراطية ثم الثورة الاشتراكية فى روسيا • ومع نهاية هذه الحرب انهارت الامبراطورية العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر ، وولدت كثير من الدول المستقلة فى شرق أوربا • وفى نفس الوقت كانت الحركات الاجتماعية والقومية فى آسيا ، أساسا وأفريقيا ، الى حدما ، آخذة فى النشوء أو التطور ، فارضة نفسها على الجميع ، حتى انتزعت من الحركات الأوربية مركز الصدارة • وهكذا فقد عاصر لينين وستالين تطورات وأحداث هامة لم يعاصرها ماركس ولا انجلز ، اثرت على رؤيتهما للامور ، وجعلت بامكان ستالين ، مثلا ، أن يؤكد عام ١٩٢٤ أن نضال شعوب المستعمرات من أجل الاستقلال هو الطريق الوحيد للتحرر من الاستعمار • فهل كان بوسع ماركس أو انجلز أن يؤكدا نفس الشىء فى القرن التاسع عشر ؟ لا ، فقد كان عليهما أن يطرحا الى جانب ذلك بديلا آخرا : تحرر المستعمرات عن طريق استيلاء البروليتاريا على السلطة فى الدول الاستعمارية • بل لعله كان عليهما أن يقدما هذا البديل على البديل الاول نظرا لتقدم حركة البروليتاريا فى الدول الاستعمارية ، بصفة عامة ، على حركة شعوب المستعمرات فى ذلك الوقت • هذا ما فعلاه ولولا ذلك لخطأهما التاريخ عندما تحررت مستعمرات روسيا القيصرية ، أساسا ، على أيدى البروليتاريا المنتصرة فى الدولة الاستعمارية •

وهكذا فصيرورة الفكر الماركسى وثيقة العرى بصيرورة الواقع •

١٠ ـ الحزب والشعب : من ستالين الى ماوتسى تونج

أول مشكلة تقابلنا هنا ، هى مشكلة الأشخاص · فستالين الذى ظل الزعيم شبه المطلق للحزب الشيوعى السوفيتى والحركة الشيوعية العالمية نحو ثلاثين عاما يحظى الآن بتجاهل شديد فى الاتحاد السوفيتى · فهو مسقط تماما من المعجم الفلسفى السوفيتى(١٦) · رغم ذكر بعض من هم اقل منه أهمية ، وأضعف صلة بالفلسفة ، مثل ، تلوستوى ، ومندليف ، وكاوتسكى ، وبوتليروف ، وسفيتوزار ماركوفيتش · واسمه لا يكاد يذكر فى « التاريخ المختصر للحزب الشيوعى السوفيتى »(١١٨) · حتى ليعجب الانسان لماذا يهاجم المؤتمر العشرون شخصا « عديم الاهمية » مثل ستالين ! وهكذا يبقى تراث ستالين بل وتراث الحزب الشيوعى السوفيتى والنظام السوفيتى بأكمله فى عصر ستالين بلا دراسة علمية (معلنة) من قبل السوفيت · وتقويم هذا التراث مستحيل فى غياب هذه الدراسة ·

حقا لقد جاء فى كتاب التاريخ المختصر أن « الاخطاء والتشويهات المرتبطة بعبادة الشخصية أخرت حركة البناء الشيوعى · لكنها لم تغير ولم يكن باستطاعتها أن تغير ، طبيعة المجتمع الاشتراكى ، الطبيعة الشعبية الصادقة للنظام السوفيتى كما أنها لم تستطع أن تزعزع أو تضعف الاسس النظرية والسياسية والتنظيمية لنشاط الحزب الشيوعى السوفيتى »(١١٩) · لكن كيف يمكن أن نقبل هذا من كتاب يستعيض عن الدراسة المنزهة عن الغرض غير المشفقة على شىء (على حد تعبير انجلز) بجمل قليلة يرجع فيها هذه « الاخطاء والتشويهات » الى مجرد « عبادة الشخصية » ، كيف ؟ لا يجيب · ثم انه يرجع « عبادة الشخصية » هذه الى مجرد عيوب فى رؤية وأخلاق وطباع ستالين ·

اى الى مجرد عوامل فردية نفسية متجاهلا بذلك كل الظروف التاريخية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أخذت خلالها «عبادة الشخصية» هذه ، وما تبعها من «الاخطاء والتشويهات» مجراها، سواء أكانت هذه الظروف داخلية أم خارجية • وعلى السؤال : كيف سمح نظام الحزب ونظام الدولة فى الاتحاد السوفيتى أن يظل على رأسهما بل ينفرد بالسلطة فيهما رجل يعانى من مثل هذه العيوب ؟ لا نجد أية اجابة •

أما فى الصين فستالين لا يزال يتمتع بمكانة مرموقة ، واسمه لا يزال يذكر مع الثلاثة الكبار : ماركس وانجلز ولينين • ومع هذا فلم نسمع عن أية دراسة صينية عميقة لتراثه ، رغم أن هناك اختلافات كبيرة بين فكره وفكر ماوتسى‌تونج (كما سيتضح فيما بعد) ، ورغم أن القيادة الصينية تتهم خروشوف ومن جاءوا بعده بالتحريف ، وقد كان خليقا بها أن تبحث لنا عن جذور هذا التحريف فى العصر الستالينى • أم ترى أنه منفصم العرى به ؟ •

هذا عن ستالين • أما ماو ، فلا يزال حيا(*) مؤثرا ، يثير فكره ، وسياسته الداخلية والخارجية خلافا كبيرا • فمن قائل ان فكر ماو هو الطور المعاصر للفكر الماركسى (كما كان فكر لينين هو الطور الذى أخذه الفكر الماركسى فى عصر لينين) الى قائل ان فكره فكر برجوازى صغير مغامر • أى أن فكر ماو لا يحظى بالموافقة شبه الاجماعية التى كان يحظى بها فكر ستالين فى حياته • بل هو أقرب الى فكر لينين الذى كان يثير خلافا كبيرا فى حياته وصل الى حد العداء مع زعماء الدولية الثانية مثلا •

هذه المشكلات لا تقلل ، ان لم تزد ، من أهمية دراسة فكر ستالين وماو • وهذا ما لن نفعله هنا اذ سنكتفى ببعض الملاحظات

(*) توفى ٩ ٩/٩/١٩٧٦

عن آراء ستالين وماو فيما يتعلق بالحزب والشعب ٠

* * *

استقينا آراء ستالين من كتابيه « أسس اللينينية » و « حول مسائل اللينينية »(١٢٠) ٠ والمفروض أن ستالين فى هذين الكتابين (كما يوحى العنوانان) لا يقدم آراءه كفرد مجرد ، بل كممثل للاتجاه اللينينى ٠ هـذا يثير مشكلة : الى أى مدى يمثل الفكر الذى طرحـه ستالين فى هذين الكتابين الاتجاه اللينينى ؟ والى أى مدى انتقى ستالين من أقوال لينين ما يخدم وجهة نظره هو وتجاهل ما لا يخدمها ؟ فى موضوع الحزب والشعب تكتسب هذه المشكلة أهمية خاصة ، لان لينين هو مؤسس نظرية الحزب فى المـاركسية ٠ بالرغم من ذلك فلن نتعرض لهذه المشكلة بأكثر مما فعلنا ٠

المقصود بالحزب هنا ، الحـزب الشيوعى ، والمقصود بالشعب ، البروليتاريا وحلفاؤها ٠ والمرحلة التى تهمنا هى مرحلة دكتاتورية البروليتـاريا ٠

يوضح ستالين أن دكتاتورية البروليتاريا هى سلطة طبقـة واحدة وليست سلطة كل الشعب « بيد أن هذا لا يعنى أن سلطة الطبقة الواحدة ، طبقة البروليتاريين ، الطبقة التى لا تشاطر ولا يسعها أن تشاطر الطبقات الاخرى هذه السلطة ، ليست بحاجة كيمـا تحقق أهدافها الى مساعدة ، الى تحالف مع جماهير الشغيلة والمستثمرين من الطبقات الاخرى ٠ بالعكس ان هذه السلطة ، سلطة الطبقة الواحـدة ، لا يمكن توطيدها وممارستها حتى النهاية الا عن طريق شكل خاص للتحالف ، بين طبقة البروليتاريين ، وجماهير الشغيلة من طبقات صغار البرجوازيين ، وقبل كل شىء مع جماهير الفلاحين الشغيلة »(١٢١) ٠

هل سيسمح لجماهير هذه الطبقات الحليفة بتكوين أحـزاب تدخل مع حزب البروليتاريا فى جبهة ؟ لا ، فهذا «الشكل الخاص للتحالف» يتلخص فى « أن قائد الدولة فى نظام دكتاتورية البروليتاريا هو حزب **واحد** ، حزب البروليتاريا ، الحزب الشيوعى ، **الذى لا يشاطر الاحزاب**

الاخرى ، ولا يسعه أن يشاطرها ، القيادة»(١٢٢) لكن ليس معنى هذا أنه لا توجد منظمات غير حزبية يمكن أن تنضم اليها هذه الجماهير . يعد(١٢٣) ستالين من هذه المنظمات غير الحزبية أربعة : نقابات العمال ، مجالس السوفيات ، التعاونيات (بما فيها التعاونيات الزراعية) ، اتحاد الشبيبة».

« من الضرورى اطلاقا توحيد وتنسيق نشاط هذه المنظمات نحو هدف واحد »(١٢٤) . و « حزب البروليتاريا وحده ، الحزب الشيوعى وحده ، قادر على القيام بهذا الدور »(١٢٥) ، و « من المؤكد أن هذا لايعنى أبدا أن المنظمات غير الحزبية ، كالنقابات والتعاونيات، الخ... ، يجب أن تكون خاضعة شكليا لقيادة الحزب بل ينبغى على أعضاء الحزب المنتمين الى هذه المنظمات والذين يتمتعون فيها بنفوذ لا جدال فيه ، أن يستخدموا جميع طرق الاقناع ، حتى تقترب المنظمات غير الحزبية فى عملها ، من حزب البروليتاريا ، وتقبل قيادته السياسية بملء اختيارها»(١٢٦) . لكن ، هل هذا ممكن حقا فى غياب حق التنظيم السياسى المستقل ؟ .

لمجالس السوفيتات أهمية خاصة . ذلك لانها « هى المنظمات الجماهيرية **الوحيدة** التى تجمع جميع المضطهدين والمستثمرين ، العمال والفلاحين ، الجنود والبحارة ، وفيها ، لهذا السبب ، تستطيع طليعة هذه الجماهير ، أى البروليتاريا ، أن تقوم بالقيادة السياسية لنضال الجماهير على وجه أسهل ، ومدى أوسع »(١٢٧) . ولانها هى « المنظمات **المباشرة** للجماهير نفسها . أى انها أكثر المنظمات **ديمقراطية** ، وهى بالتالى ، أكثر المنظمات نفوذا بين الجماهير ، تسهل لهذه الجماهير الاشتراك الى الحد الأقصى فى تنظيم الدولة الجديدة ، وادارتها وتطلق الى الحد الاقصى الطاقة الثورية والمبادرة والكفاءات الخلاقة عند الجماهير المناضلة لتحطيم النظام القديم ، المناضلة لاقامة النظام الجديد البروليتارى »(١٢٧) .

لكن كيف يمكن أن يسير هـذا وعند ستالين أن دور الحـــزب كقائد « يكمن فى أن أية مسألة هامة سياسية كانت أم تنظيميـــة لاتحلها مؤسساتنا السوفيتية ، وغيرها من المؤسسات الجماهيرية،بدون توجيهات الحزب · وفى هـذا المعنى يمكن أن نقـول ان دكتاتورية البروليتاريا هى فى الأســاس « دكتاتورية » طليعتها « دكتاتورية » حزبـها الذى هو القوة القائدة الاساسية للبروليتاريا · »(١٢٨) ·

« ينبغى ألا ينظر الى دكتاتورية البروليتاريا أى الى الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية على أنها حقبة وجيزة عابرة من الاعمال والمراسيم «الثورية العليا» بل على انها مرحلة تاريخية كاملة»(١٢٩)٠. من المهام المطروحة فى هذه المرحلة مهمة خطيرة ، تتطلب نضالا عنيـدا طويل النفس هى مهمة التثقيف والتغلب على كثير من عادات البرجوازية وتقاليد المجتمع القديم · لـذا يقول ستالين ان هذه المرحلة « ضرورية أيضــا لأجل تمكين البروليتــاريا ، أولا من تثقيف نفسهــا وتقوية ساعدها حتى تصبح قوة قادرة على قيادة البلاد ، ولأجل تمكينها ثانيا من اعادة تثقيف وتحويل الفئات البرجوازية الصغيرة فى اتجاه يضمن تنظيم الانتاج الاشتراكى »(١٣٠) ·

هنا تظهر البروليتاريا كفاعل والفئات البرجـوازية الصغـيرة كمفعول به · هل يمكن أن يقود هـذا الى تثقيف نـاجح ؟ هل يمكن أن ينجح تثقيف دون الرغبة الحرة الصادقة من قبـل ذلك الذى يتثقف ودون مشاركته الايجابية النشطة ؟ ويوسع ستالين دور المفعول به ليشمل الجماهير الكادحة والمستثمرة · فهـو يعتبر أن « استخـدام سلطة البروليتاريا لفصل الجماهير الكادحة والمستثمرة نهائيـا عن البرجوازية ولتوطيد تحالف البروليتاريا مع هذه الجماهير ولجذب هذه الجماهير لبناء الاشتراكية ولتأمين قيادة هــذه الجمـاهير من قبـل البروليتاريا الحــاكمة »(١٣١) ، ناحيــة من ثلاث نواح أســاسية لدكتاتورية البروليتاريا · بل ان دور المفعول به هذا يمتد ليشمـل

ملايين البروليتاريين ، يقول ستالين « ولكن ما معنى « المحافظة على » الدكتاتورية و «توسيع مداها» ؟ ذلك معناه تلقين ملايين البروليتاريين روح النظام والتنظيم ، معناه خلق التماسك بين الجماهير البروليتارية واقامة حاجز يقيها التاثير الهدام الذى يبثه العنصر البرجوازى الصغير ، والعادات البروجوازية الصغيرة ، ذلك معناه تقوية عمل البروليتاريين التنظيمى ، فى سبيل اعادة تثقيف الفئاتالبرجوازية الصغيرة وتغييرها، معناه مساعدة الجماهير البروليتارية على القيام بتثقيف نفسها حتى تصبح قوة قادرة على محو الطبقات وتهيئة الشروط الضرورية لتنظيم الانتاج الاشتراكى ٠ وهـذا كله غير ممكن تحقيقه بدون حزب قوى بتماسكه ونظامه »(١٣٢) ٠ من هو الفاعل فى كل هـذا ؟ انه الحزب بكل وضـوح ٠

« ان الحزب هو الزعيم السياسى للطبقة العاملة »(١٣٣) ، عليه أن يصغى بانتباه الى صوت الجماهير ، وأن يتعلم منها ، وأن يبنى نفوذه بينها على الثقة وليس على الحقوق غير المحدودة ، وأن يتيح لها فرصة الاقتناع بتجربتها الذاتية ٠ هل معنى هذا حدوث أى تغير فى دور الحزب كفاعل ودور الجماهير كمفعول به ؟ يقول ستالين :

« ١ ـ ان نفوذ الحزب والانضباط الحديدى فى الطبقة العـاملة الضروريان لدكتاتورية البروليتاريا لا يقومان على الخـوف أو على حقوق الحزب « غير المحدودة » بل على ثقة الطبقة العاملة بالحـزب ، على تأييد الطبقة العاملة للحزب ٠

٢ ـ ان ثقة الطبقة العاملة بالحزب لا تكتسب فجأة ولا بوسيلة العنف ازاء الطبقة العاملة ٠ بل بعمل طويل يقـوم به الحـزب بين الجماهير ، وبسياسة الحزب الصحيحة ، وبمعرفة الحزب أن يضمن لنفسه تأييد الطبقة العاملة وأن يتقدم جماهير الطبقة العاملة ٠

٣ ـ ان قيادة حقة من قبل الحزب لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، بدون سياسة صحيحة للحزب مدعمة بتجربة نضال الجماهير ولا بدون ثقة الطبقة العـاملة ٠

٤ ـ ان الحزب وقيادته ، اذا كان يتمتع بثقة الطبقة العاملة واذا كانت هذه القيادة قيادة حقة ، لا يمكن أن يتعارضا مع دكتاتورية البروليتاريا • اذ بدون قيادة الحزب ، « دكتاتورية » (الحزب) الذى يتمتع بثقة الطبقة العاملة ، لا يمكن وجود دكتاتورية بروليتـارية وطيدة ، ولو الى أقصر حد »(١٣٤) •

على الطبقة العاملة الانضباط واعطاء الثقة والتأييـد ولهـا أن تجرب • أما الحزب فله أن يقود ويكسب النفوذ ويضع السياسات الصحيحة • ماذا لو وضع الحزب سياسة خاطئة ؟ لا يقول لنا ستالين كيف يمكن للجماهير معارضة هذه السياسة ، ولا من خـــلال أيـة مؤسسات يمكنها اصلاحها • لكنه يقول « فاذا كان الحزب يريد أن يظل قائدا ينبغى عليه فى مثل هذه الحالات أن يعيد النظر فى سياسته ، ينبغى عليه أن يصلح سياسته ، ينبغى عليه أن يعترف بغلطته وأن يصلحها »(١٣٥) أى أن الحزب هو الفاعل المنفرد هنا أيضا •

على ضوء هذا كيف يمكن أن نفهم قول ستالين ان على الحزب أن يتعلم من الجماهير • لنستعرض النص فى سياقه • يقول ستالين « ان على الحزب أن يصغى بانتباه الى صوت الجماهير ، ان عليه أن يقف موقف العناية من الغريزة الثورية عند الجماهير ، ان عليه أن يدرس نضال الجماهير العملى متحققا بذلك من صحة سياسته،وان عليه اذن ألا يعلم الجماهير وحسب بل أن يتعلم منهـا أيضـا »(١٣٦) • لا يذكر ستالين شيئا عن المبادرة الثورية للجمـاهير ولا عن وعيهـا وتنظيمها الثـوريين انه يحـدثنا فقط عن « غريزتهـا » الثـورية • ألا يدعونا هذا الى أن نفهم أن ما يقصده ستالين بـ « نضال الجماهير العملى » هو ذلك النضال العفوى أو ذلك النضال الذى تقـوم فيـه الجماهير بدور المنفـذ ويقوم فيه الحزب بدور العقل المدبر ؟ وعندما يقول ستالين ان على الحزب أن يدرس هذا النضـــال وأن يتعلم من

الجماهير ، ألا يحق لنا أن نفهم أن الحزب سينفرد بلعب الدور الواعى الايجابى النشط ، فى عمليتى الدراسة والتعلم هاتين ؟ ٠

وستالين لا ينفى تماما أن الطبقة البروليتارية فاعلة نشيطة واعية ذات ارادة ٠ فهو يقول ان النضال الطبقى « يمكنه أن يظهر فى عمل البروليتاريا الواسع فى حقلى التنظيم والبناء بالاشتراك مع الجماهير الغفيرة بعد أن يتوطد الحكم ٠ والفاعل النشيط فى جميع هذه الحالات هو البروليتاريا من حيث هى طبقة ٠ لم يحدث اطلاقا أن نظم الحزب ، الحزب وحده كل هذه الاعمال بقواه الخاصة وحدها بدون دعم الطبقة ٠ وهو عادة لا يقوم بأكثر من قيادة هذه الاعمال ويقودها بمقدار ما يستند الى تأييد الطبقة ٠ اذ أن الحزب لا يستطيع أن يشمل الطبقة ولا أن يحل محلها » (١٣٧) ٠ لكى ندرك أن الفعل النشيط هذا ليس أكثر من فعل المنفذين المنقادين يكفى أن نقرأ قول ستالين « هناك بين توجيهات الحزب وتطبيقها ، ارادة وعمل المنقادين، ارادة وعمل الطبقة ، استعدادها (أو رفضها) لدعم هذه التوجيهات ، طاقتها (أو عجزها) على تطبيقها ، طاقتها (أو عجزها) على تطبيقها كما يتطلب الوضع بالضبط ٠ ولا حاجة اطلاقا للبرهان على أن الحزب الذى تسلم القيادة ، لا يمكنه الا أن يحسب حسابا لارادة وحالة ومستوى وعى المنقادين ، ولا يمكنه الا أن يحسب حسابا لارادة وحالة ومستوى وعى طبقته »(١٣٨) ٠

الا تذكرنا نظرة ستالين هذه الى الحزب والشعب بما أوردناه سلفا من قول كارل ماركس عن أن « المبدأ المادى القائل بأن الناس نتاج الظروف والنشأة،وبالتالى فان الناس المتغيرين نتاج ظروف أخرى ونشأة متغيرة ، ينسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف ، وأن المربى نفسه يحتاج الى أن يربى ٠ ومن ثم فهذا المبدأ يصل بالضرورة الى تقسيم المجتمع الى جزئين أحدهما فوق المجتمع »(٤٥) ٠

ماهو هذا الحزب الذى يلعب هذا الدور الخطير ؟ « انـــه فصيلة الطليعة من الطبقة العــاملة »(١٣٩) ، و « هو مركز التجمــع لنخبــة الطبقة العاملة»(١٤٠) • يقول ليذين «ما الذى يوطد الانضباط فى حزب البروليتاريا الثورى ؟ وكيف يراقب ؟ وبم يدعم ؟ أولا بادراك الطليعة البروليتارية،واخلاصها للثورة ، برباطة جأشها وتضحيتها وبطولتها• وثانيا بمعرفتها الارتباط والاقتراب ، وان شئتم **الاندماج** الى حد معين **باوسع جماهير الشغيلة** ، مع الجماهير البروليتارية فى المقام الاول ، **ولكن كذلك** مع جمــاهير الشغيلة **غــير البروليتاريين** • وثالثا بصحة القيادة السياسية التى تمارسها هــذه الطليعة ، بصحة استراتيجيتها وتاكتيكها السياســيين ، شريطة أن تقتنع أوســع الجماهير بصحتها **بتجربتها الخاصة** »(١٤١) •

لكن ألا يمكن أن يدب الفساد فى صفوف هذه الطليعة ؟ الجواب عند ستالين ، بلى ، فهو يقول « ••• ان كل هذه الجماعات البرجوازية الصغيرة تتسرب الى الحزب ، بهذه الطريقة أو بتلك ، حاملة اليه روح التردد والانتهازية ، روح افساد المعنويات وعــدم اليقين • هؤلاء هم الذين يؤلفون بصورة رئيسية منبع العمل الانقسامى والتفكك ، منبع تخريب الحزب وتفكيك تنظيمه وهدم الحــزب من الداخل »(١٤٢) • هو اذن يرى أن هــذا الفساد ينتج عن تسرب الجمــاعات البرجوازية الصغيرة،لكنه لايذكر أن الفساد يمكن أن ينتج أيضا،عنتدهور،أوجمود بعضالعناصر البروليتارية المناضلة المخلصة ، بسببسلطة الحزب شبه المطلقة أو لغيره من الاسباب • كيف يرى ستالين العلاج ؟ «ان الطريق الى تطوير الاحزاب البروليتارية وتقويتها تمر عبر تطهير هذه الاحزاب من الانتهــازيين والاصــــلاحيين ، ومن الاشــتراكيين الاستعمــاريين والاشتراكيين الشوفينيين ، ومن الاشتراكيين الوطنيين والاشتراكيين السلمين »(١٤٣) •

رغم أن ستالين يشير(١٤٤) الى اشتراك اللا حزبيين فى اختيار

أعضاء الحزب الجـدد ، فلا ترد فى كتابيه أية اشارة الى اشتراكهم فى تطهير الحـــزب ، ولا الى أن هـــذا التطهير يصير من خـلال المعارك الجماهيرية . كيف يصير التطهير اذن ؟ هل لنا أن نقول انه يصـير بمعرفة« الهيئة التى تتمتع بهيبة رفيعة والموجودة فى مركز الحزب » تلك الهيئة التىوردذكرها فى قوللينين: «فى هذا العهد من الحرب الاهلية الحادة ، لن يتمكن الحزب الشيوعى من أداء واجبه الا اذا كان منظما على أقصى درجات المركزية ، ويسوده نظام طاعة حديدى ، يقرب من نظام الطاعة العسكرى ، والا اذا كان مركز الحزب هيئة تتمتع بهيبـة رفيعـــة ، وذات سلطات واسعة ، وحائزة على ثقـــة أعضاء الحزب العـــامة »(١٤٥) .

نلاحظ أن لينين قد ذكر فى قوله « عهد الحرب الاهلية » . وبالرغم من أن هذه الحرب كانت قد انتهت قبل أن ينهى ستالين أيا من كتابيه فان الاتحاد السوفيتى كان لا يزال يمر بظروف عصيبة.يقول ستالين « يجب أن لا ننسى أن خطر التدخل ، مع كل ما ينجم عنه من عواقب ، سيظل ما دام التطويق الرأسمالى موجودا »(١٤٦) . وكان ستالين مدركا أنه ، فى ظروف جديدة،يمكن أن تتغير بعض «فروضه»،ومايترتب عليها.فهو يقول « ومن البديهى أنه ، فى المستقبل البعيد ، اذا انتصرت البروليتاريا فى البـلدان الرأسمالية الرئيسية ، واذا تبـدل التطويق الرأسمالى الحالى بالتطويـــق الاشتراكى ، يصبح طــريق التطور « السلمى » ممكنا تمـــاما فى بعض البلدان الرأسمالية . اذ سـيرى الرأسماليون عند ذاك أمام الوضع الدولى «غير الملائم» أنه من الاصوب أن يسلموا «بملىء اختيارهم» . بتنازلات جدية للبروليتاريا.ولكن هذا الفرض لا يتعلق الا بمستقبل بعيد وممكن ، أما فيما يتعلق بالمستقبل القريب المباشر فليس لهذا الفرض أساس على الاطلاق »(١٤٧) .

نحن لا نحاول هنا التماس الاعذار لستالين . اننا نحاول فقط استكشاف الظروف التى سادت فيها نظريته . فصدور هذه النظرية

أو تلك عن شخص بعينه ، وليس عن غيره ، لا يمكن فهمه دون دراسة شخصيته وتحليل نفسيته • هذه الدراسة وهـذا التحليل تتناقص أهميتهما كثيرا اذا كان الغرض هو فهم لماذا سادت هـذه النظرية أو تلك دون غيرها من النظريات ، الامر الذى يتطلب دراسة الظـــروف التاريخية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، و ••• التى سادت فيها هذه النظرية •

* * *

لننتقل الآن الى ماوتسى تونج الذى تطورت نظريته فى ظـروف جديدة • كان من أهمهـا وجود التراث التاريخى للثـورة البلشفية ، وتجربة وخبرة الحـــزب والدولة فى الاتحاد السوفيتى ، والمســاندة السوفيتية التى استمرت فى مجالات عديدة أكثر من عشر سنوات بعد انتصار ثورة الصين•والتى لا تزال قائمة الى حد ما حتى الآن • فهناك معاهدة دفاعية بين البلدين لم يلغها أيهما رغم خلافهما الشديد •

عند ماو ، كما عند ستالين ، الحزب هو القائد • كيف يفهم ماو القيادة ؟« فى كل الفعل العملى لحزبنا كل قيادة صحيحة هى بالضرورة « من الجماهير ،الى الجماهير » • هذا يعنى : خـذ الافكار من الجماهير (أفكار مشتتة وغير مرتبة) وركزها (من خلال الدرسة ، حولها الى أفكار مركزة ومرتبة) ، ثم اذهب الى الجماهير ، وانشر واشرح هـذه الافكار ، حتى تحتضنها الجماهيركأفكارها • تمسكبشدة بهذه الافكار، وترجمها الى فعل واختبر صحتها خلال هذا الفعل • مرة أخرى ركـز الافكار من الجماهير ومرة أخـرى اذهب الى الجمـاهير حتى تستثمر الافكار خلال الصعاب ، وتنفذ تماما • وهكذا مرة أخرى ثم مرة أخرى ، فى حلزون بلا نهـاية ، وكل مرة تزداد الافكار صحـة وحيوية وغنى ، وهذه هى نظرية المعرفة المـاركسية »(١٤٨) •

لا غنى عن هذا التلاحم بين القيادة والجماهير فـ « مهما كانت

المجموعة القائدة نشيطة فان نشاطها سيئول الى جهد غير مثمر لحفنة من الناس الا اذا ارتبط بنشاط الجماهير · من الجهة الاخرى ا ذا كانت الجماهير وحدها نشيطة دون مجموعة قائدة قوية تنظم نشاطهم على وجه حسن ، فان هذا النشاط لا يستطيع أن يستمر طويلا أو يحمل الى الامام فى الاتجاه الصحيح أو يرفع الى مستو عال »(١٤٩) · والجماهير ليست على نمط واحد بل ان « الجماهير فى أى مكان معين تتركب بصفة عامة من ثلاثة أجزاء ، النشيط نسبيا ، والمتوسط والمتخلف نسبيا · على القادة اذن أن يكونوا ماهرين فى توحيد العدد الصغير من العناصر النشيطة حول القيادة ويجب أن يعتمدوا عليهم لرفع مستوى العناصر المتوسطة ، ولكسب العناصر المتخلفة »(١٥٠) · وليس المطلوب أن تظل الجماهير كتلة هلامية ، بل على كل عضو من أعضاء الحزب أن « يوقظها ويرفع وعيها السياسى ويساعدها شيئا فشيئا على تنظيم نفسها طوعا »(١٥١) ·

والجماهير عند ماو « لديهم طاقة خلاقة غير محدده · وهم يستطيعون تنظيم أنفسهم ، والتركيز على أماكن وفروع العمل التى يستطيعون استخدام طاقتهم فيها استخداما كاملا »(١٥٢) · بل ان «الجماهير هم الابطال الحقيقيون،بينما كثيرا مانكون نحن طفليين وجهلة، وبدون هذا الفهم من المستحيل أن نكتسب حتى أبسط المعرفة الاولية »(١٥٣) · أكثر من هذا يمكن للجماهير أن تسبق الحزب ! يقول ماو « على رفاقنا ألا يفترضوا أنه ليس لدى الجماهير فهم لما لم يفهموه هم بعد · كثيرا ما يحدث أن تسبقنا الجماهير وتكون مشوقة للتقدم خطوة ، وبالرغم من ذلك فان رفاقنا يفشلون فى العمل كقادة للجماهير ويتذيلون خلف عناصر متخلفة معينة عاكسين وجهات نظرها ، وعلاوة على ذلك يظنون خطأ أن وجهات النظر هذه هى وجهات نظر الجماهير العريضة »(١٥٤) ·

اذن فعند ماو ، الجماهير قادرة فاعلة خلاقة وفى كثير من الاحيان

متقدمة سباقة • ما دور هـــذه الجماهير فى تكوين القيادات الحزبية وتطويرها ؟ يقول ماو « يمكن للمجموعة القائدة ، الصادقة التوحـــد والمرتبطة بالجماهير ، أن تتكون شيئا فشيئا ، فقط ، فى عملية الصراع الجماهيرى ، وليس بمعزل عنها • فى عملية الصراع العظيم ، لا يجب ، ولا يستطيع ، تركيب المجموعة القائدة ، فى أكثر الاحوال ، أن يظـــل تماما بلا تغير خلال المراحل الاولية والوسطى والنهائية • فالنشطون الذين يتقدمون خلال الصراع يجب أن يرقوا باستمرار،ليحلوا محل هؤلاء الاعضاء الاصليين فى المجموعة القائدة الذين هم أسوأ بالمقارنة أو الذين قد تحللوا »(١٥٥) •

وهكذا لايوجد عند ماو سور صينى يفصل بين الحزب والشعب• فالشعب يسهم فى تكوين القيادات الحزبية وتطويرها بـل واسقاطها اذا دعت الحاجة • والحزب يسهم فى تطوير الجماهير وبلورة أفكارها ورفع وعيها السياسى وتنظيمها • هذه النظرة الديناميكية الى الحزب والشعب والتفـــاعل بينهمـــا تطورت أكثر فى ظـــل الثورة الثقافية البروليتارية العظمى فى الصـــين • فكما أن الجماهير ليست على نمط واحد ، فالقيادات أيضا ليست على نمط واحـــد • القيادات تختلف وتبعا لذلك يختلف تعاملها مع الجماهير وتعامل الجماهير معهـــا • جاء فى قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى حول الثـــورة الثقافية البروليتارية العظمى الذى أقر فى ١٩٦٦/٨/٨(١٥٦) :

« ٣ ـ أعطوا الأولية للاندفاع وعبئوا الجماهير دون تحفظ

تتوقف نتيجة هذه الثورة الثقافية الكبرى على ما اذا كانت قيادة الحزب تتقدم على تعبئة الجماهير دون تحفظ أم لا •

توجد حاليا أربعة أوضاع مختلفة بصـــدد قيادة حركة الثورة الثقافية من جانب منظمات الحزب فى مستويات مختلفة :

١ ـ هناك وضع الاشخاص المسئولين عن منظمات الحـــزب الذين يقفون على رأس الحركة ويقدمون عى تعبئة الجماهير بجسراة • أنهم يعطون الاولوية للاندفاع • انهم مناضلون شيوعيون جـريئون وتلامذة جيدون للرئيس ماو ، انهم أنصار الدازيباو (مجلات الحائط ونحوها) والمناظرات الواسعة • انهم يشجعون الجمـــاهير على أن تفضح الاشباح والشياطين من كل نوع ، وتنتقـد النقائص والاخطاء أيضا ، فى عمل الاشخاص المسئولين • ينتج هذا النوع الصحيح من القيادة عن وضع السياسة البروليتارية فى الصدارة وأفكار ماوتسى تونج فى القيادة •

٢ ـ فى وحدات عديدة يفهم الاشخاص المسئولون ، مهمة القيادة فى هذا النضال العظيم فهما ضعيفا جدا ، قيادتهم شديدة البعـد عن الجدية والفعالية وبالتالى فانهم يجدون أنفسهم غير أكفاء وفى موقف ضعيف • انهم يضعون الخوف فـــوق كل شىء آخـــر ويتمسكون بالاساليب والانظمـــة البالية ولا يرغبون فى قطـــع الصلة بالعادات المصطلح عليها ، ولا فى التحرك قدما • أخذهم ترتيب الامور الجديدة ، ترتيب الجماهير الثورى على غرة وكانت النتيجة أن قيادتهم متخلفة عن الموقف ، متخلفة عن الجماهير •

٣ ـ فى بعض الوحدات ارتكب الاشخاص المسئولون أخطاء من نوع أو آخر فى المـــاضى ، فهم أشد ميلا بعـد لوضع الخوف فوق كل شىء آخر ، خشية أن تقبض عليهم الجماهير ، والواقع أنهم اذا قاموا بنقـد ذاتى جـدى وقبلوا انتقاد الجماهير ، فان الحـزب والجماهير سوف تصفح عن أخطائهم • أما اذا لم يقم الاشخاص المسئولون بذلك، فسوف يواصلون ارتكاب الاخطاء ، ويصبحون عثرات أمام حـــركة الجمـــاهير •

٤ ـ هناك بعض الوحدات يسيطر عليها أولئك الذين تسللوا

الى داخل الحـــزب ويسيرون فى الطريق الرأسمالى · ان مثـل هؤلاء الاشخاص هم فى منتهى الخوف من أن تفضحهم الجمـــاهير ، ولذلك فانهم يبحثون عن كل ذريعـــة ممكنة لكبت حـركة الجماهير · انهم يعمدون الى مناورات مثل تغيير أهداف الهجوم وقلب الاسود أبيضا ، فى محاولة لتضليل الحركة · وعندما يجدون أنفسهم فى عزلة شـديدة ويعجزون عن مواصلة السير كالسابق ، يعمدون الى مزيد من التآمر ، ويطعنون الشعب فى الظهر ، ويبثون الشائعات ، ويشوشون التمييز ما وسعوا بين الثورة والثورة المضادة ، من أجل الهجوم على الثوريين·

ان ما تطلبه لجنـــة الحزب المركزية من اللجان الحزبية فى كل المستويات ، هو أن تثابر على اسداء القيادة الصحيحة ، وعلى اعطاء الاولوية للاقدام وتعبئة الجماهير بجرأة ، وتغيير وضع الوهن والعجز حيثما وجدا ، وتشجع أولئك الرفاق الذين ارتكبوا أخطاء ، لانهم راغبون فى تصحيحها ، على أنيطرحوا عنهم أعباء أخطائهم ، وينضووا النضال، وتعـــزل كل ذوى السلطة الذين يسيرون فى الطـريق الرأسمالى من مناصبهم القيـــادية ، بحيث تســـتعاد القيـــادة للثوريـــين البروليتاريين »(١٥٧) ·

أثناء الثورة الثقافية ، لم تقتصر مهمـــة الجماهير على تطوير القيادات بل شملت أيضـ اتحرير نفسها · « الطريقة الوحيدة فى الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى ، هى أن تحرر الجماهير نفسها بنفسها ، ولا يجوز استعمال أية طريقة تقوم على الاضطلاع بالعمل بـــدلا عن الجماهير »(١٥٨) · وعملية التحرير هذه لا تخلو من خلاف فى الآراء · « انه أمر سليم أن تعتنق الجماهير آراء مختلفة · والتنافس بين الآراء المختلفة أمر لا يمكن اجتنابه ، أنه ضرورى ونافع·سوف تؤكد الجماهير ما هو صحيح فى مجرى المناظرة السياسية المليـة ، وتصحح ما هو خاطىء ، وتبلغ الاجماع بالتدريج »(١٥٩) · لكن ألم يكن من الافضل أن يستخـــدم قـــرار اللجنـــة المركـــزية ، كلمة « تقبـــل »

بدلا من « تعفــق » ؟ ثم هــل بلوغ الاجمـــاع ممكن أو حتى مرغـوب فيــه ، دائمـــا ؟ عـلى الاقــل هـو ليس لازمـا • ففى المناظرة « لا يجوز استعمال الاكراه لاخضاع أقلية تحمل آراء مخالفة • يجب حماية الاقلية لان الحقيقة تكون أحيانا الى جانبهـا • وحتى لو كانت الاقلية على خطأ فينبغى أن يتاح لهـــا الاحتجاج لقضيتها والاحتفاظ بآرائها »(١٥٩) • لكن ، هل الامور الخلافية تحتمل دائمـا الخطأ والصواب ؟ ألا يجوز أن تختلف على تجميل مديننا مثلا ؟ •

لكى تمارس الجماهير هذا النشاط الواسع لابد لهـا من أشكال تنظيمية • هذه الاشكال تولد وتتطور أثناء النشاط نفسـه • جاء فى قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى المذكور آنفا :

« بدأت أشياء جديدة كثير تظهر فى الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى ، فالجماعات واللجان والاشكال التنظيمية الاخــرى للثورة الثقافية التى خلقتها الجماهير فى كثير من المدارس والهيئات هى شىء جديد وذو أهمية تاريخية كبرى •

هذه الجماعات واللجان والمؤتمرات الثورية الثقافية هى أشكال تنظيمية جديدة ممتازة تربى الجماهير نفسها فيها بقيادة الحــزب الشيوعى • انها جسر ممتاز لابقاء حزبنا على صلة وثيقة بالجماهير • انها أجهزة سلطة للثورة الثقافية البروليتارية »(١٦٠) •

جميل أن يحى قرار اللجنــة المركزية تنظيم الجماعات واللجان والمؤتمرات الثورية الثقافية ، ويؤكد على أهميتها • لــكن ماذا عن تنظيم الاحزاب المستقلة ؟ •

لنستعرض الآن النقطة الاخيرة فى هذا القرار :

« ١٦ ـ افكار ماوتسى تونج هى مرشد العمل فى الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى :

لابد فى الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى من أن نعلى الراية الحمراء العظيمة لافكار ماونسى تونج ، ومن أن نضع سياسة البروليتاريا فى مركز القيادة • يجب مواصلة حركة دراسة ، وتطبيق أعمال الرئيس ماوتسى تونج على نحو خلاق بين جماهير العمال والفلاحين والجنود والكوادر والمثقفين ، ويجب اتخاذ أفكار ماوتسى تونج مرشدا للعمل فى الثورة الثقافية •

ويجب على لجان الحزب فى كافة المستويات ، فى هذه الثورة الثقافية الكبرى المعقدة ، أن تدرس وتطبق أعمال الرئيس ماو بمنتهى الوجدان وعلى نحو خلاق • وبصورة خاصة ، عليها أن تدرس مرارا وتكرارا كتابات الرئيس ماو حول الثورة الثقافية ، وحول طرق القيادة الحزبية ، مثل « **فى الملأ الجديد** » ، « **احاديث فى ندوة ينان حول الادب والفن** » ، « **فى المعالجة الصحيحة للتناقضات بين الشعب** » ، « **خطاب فى الندوة الوطنية للحزب الشيوعى الصينى حول العمل الدعائى** » ، « **بعض المسائل بصدد طرق القيادة** » ، « **طرق عمل اللجان الحزبية** » •

يجب على اللجان الحزبية من كل المستويات أن تتقيد بالتوجيهات التى أسداها الرئيس ماو على مر السنين ، ولا سيما أن تطبق خط الجماهير الذى يعنى « من الجماهير والى الجماهير » ، وأن تكون تلميذة قبل أن تصير معلمة • عليها أن تتجنب النظر من جانب واحد ضيق الافق • عليها أن تنمى الجدلية المادية وتعارض الميتافيزيقية والمدرسية •

الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى قمينة بأن تحقق ظفرا باهرا تحت قيادة لجنة الحزب المركزية برئاسة الرفيق ماوتسى تونج »(١٦١) ٠

من المعروف أن « أفكار ماوتسى تونتنج » ، لها فى الصين معنى أوسع كثيرا من معناها خارج الصين ٠ لكننا مع ذلك نسأل لماذا تحصر الثورة الثقافية نفسها بأفكار ماوتسى تونج وكتاباته وأعماله ؟ واذا كانت هناك ضرورة محلية ، أو مرحلية ، تدعو الى ذلك،فلماذا لم يشدد على التطوير الخلاق لافكار ماوتسى تونج كما شدد على تطبيقها الخلاق ؟ ٠ اليس من الخطورة بمكان أن يفكر فرد واحد لمئات الملايين من البشر ؟ ٠

* * *

بالرغم من أن أفكار (وممارسات) ماوتسى تونج ، بشأن الحزب والشعب ، تطوير هام لافكار (وممارسات) ستالين ، فمشكلة ادارة الصراع فى المجتمع ، وفى داخل الحزب لا تزال قائمة تنتظر حلا ٠

وبدون حل هذه المشكلة ، فالدول التى ترفع شعار « بناء الشيوعية » مهددة بأن يتكون فيها ــ ان لم يكن قد تكون فى بعضها بالفعل ــ صفوة مسيطرة ، منفتعة من النظم القائمة (التى من المفروض انها انتقالية) ، تسيرها تبعا لمصالحها ، وليس تبعا لمصالح الشعب ٠ وهكذا ، ففى ظل شعار « بناء الشيوعية » يمكن أن تبنى أنماط جديدة من نظم القهر والاغتراب ٠

قد يكون من المفيد فى بحث مشكلتنا هذه دراسة الاختلاف البين بين كل من النظامين السوفيتى والصينى وبين الافكار التى عرضها لينين فى كتابه المشهور : الدولة والثورة ٠

١١ ـ الــكم والــكيف والمنظــومة :
من انجــلز الى أوســكار لانــج

هل الديالكتيك منطق أم منهـج (أو طريقة) أم علم أم ماذا ؟ يبدو أن هذه مشكلة غير محسومة . مثلا للفلاسفة السوفييت المعاصرين آراء مختلفة فيها(١٦٥) . وانجلز نفسه لم يكن واضحا بشأنها . فهو كما ذكرنا سابقا، يقول فى كتابه ضد دوهرنج « حتى المنطق الشكلى هو أولا طريقة للتوصل الى نتائج جديدة ، للتقدم من المعروف الى غــير المعروف ـ والديالكتيك بالمثــل ، فقط هو كذلك بتفوق أكثر بكثــير جدا»(٦٨) . ثم يقول بعد صفحات قليلة «الديالكتيك،أيا كانت الحال، ليس أكثر من علم القوانين العــامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع البشرى والفكر »(١٦٣) .

هــذا الفهم الاخير للديالكتيك هو الذى يقبله أوسكار لانج فى كتابه « الكلات والإجزاء » . والـ « كل » عند أوسكار لانج ، هو منظومة ذات « أجزاء » أو « عناصر » مرتبطة بعلاقات . ونتيجة لتفاعل هذه العناصر تتطور الكلات . وقد تنتقى بعض هذه الكلات لتكون منظومات أكثر تعقيدا ، « كلات من رتبة أعلى.» ، ذات صفات جديدة ،، وأنمــاط سلوكية لم تقابل من قبل .

يقول أوسكان لانج «، هــذه الصورة لعلاقة الكلات بأجزائها ، وللاسلوب الذى تظهر به ، فى مجرى التطور الديالكتيكى ، كلات جديدة ، بما يناظرها من أنماط سلوكية ، قد قصد بها أن تكون تعميما واسعا ، لنتائج العلم الطبيعى والاجتماعى »(١٦٤) .

مفهوم « المنظومة » أو « الكل » هذا الذى يلعب دورا محوريا فى كتاب أوسكار لانج ليس جديدا · فهو يرد (تقريبا بنفس المعنى) فى أماكن متعددة من كتابات انجلز · الجديد أن يستخدم هذا المفهوم فى علاج الديالكتيك · يقول أوسكار لانج « كان أى علاج دقيق ، وسليم منهجيا لمشكلة الكلات والتطور الديالكتيكى معطلا حتى الآن(١٦٥) لعدم توافر جهاز فكرى ــ مفاهيم وقواعد للتعامل معها ــ مناسب الغرض · مثل هذا الجهاز آخذ فى الظهور فى الوقت الحاضر(١٦٥) ، بالارتباط مع تطور علم جديد ، هو السيبرنا طيقا(١٦٦) »(١٦٧) · وهكذا يمكن اعتبار محاولة أوسكار لانج استجابة (ليست نهائية بأية حال) لدعوة انجلز الى أن تغير الفلسفة المادية شكلها « مع كل اكتشاف يبدأ عصرا جديدا ، حتى فى مجال العلوم الطبيعية »(٧٨) ·

للأسف لم يوضح أوسكار لانج فى كتابه العلاقة بين محاولته وبين ذلك الطور الذى أخذه الديالكتيك على يدى انجلز · كما أننا لن نبحث هذا الامر هنا · سنكتفى بتقديم مثال من الامثلة العديدة التى ناقشها انجلز،تاركين لمن يرغب أن يرى كيف أن ادخال مفهوم المنظومة (والجهاز الفكرى المصاحب له) كان حريا بأن يقلل من الغموض الذى أحاط بنقاش انجلز ويزيد من عمقه وفائدته العملية ·

يقول انجلز :

« فى الختام سنستدعى شاهدا اضافيا للانتقال من الكم الى الكيف هو ــ نابليون · يصف نابليون القتال بين الفرسان الفرنسيين الذين كانوا فرسانا سيئين لكنهم منضبطون ، وبين المماليك ، الذين كانوا بغير شك أفضل فرسان عصرهم فى المبارزة لكنهم يفتقرون الى الانضباط ، كما يلى :

« كان الملوكان بغير شك أكثر من كفء لثلاثة فرنسيين و ١٠٠ مملوك كانوا يعادلون ١٠٠ فرنسى و ٣٠٠ فرنسى كانوا يستطيعون

بصفة عامة أن يغلبوا ٣٠٠ مملوك و ١٠٠٠ فرنسى كانوا بلا استثناء يهزمون ١٥٠٠ مملوك »(١٦٨) ٠

تماما كما هو الحال مع ماركس ، كان يلزم مجموع أدنى محدد ، وان كان متغيرا ، من القيم التبادلية كى يجعل تحولها الى رأسمال ممكنا ، فانه مع نابليون ، على الكوكبة من الفرسان أن تكون ذات عدد أدنى محدد كى تجعل بالامكان أن تظهر قوة الانضباط ، المجسدة فى النظام الصارم والاستخدام المخطط ، نفسها وترتفع متفوقة حتى على عدد أكبر من الفرسان غير النظاميين ، بالرغم من أن الآخرين افضل ركوبا وأمهر كفرسان وكمحاربين ولا يقلون شجاعة عن الاولين ٠ لكن ماذا يثبت هذا ضد السيد دوهرنج ؟ ألم يقهر نابليون قهرا بائسا فى صراعه مع أوربا ؟ ألم يعانى من الهزيمة تلو الهزيمة ؟ ولماذا ؟ فقط كنتيجة لانه قد أدخل الفكرة الهيجيلية الضبابية المختلطة،فى تاكتيكات الفرســـان ! »(١٦٩) ٠

كمـا جاء فى البـداية ، هذه دعوة الى النقاش · أرجو أن يسهم هذا النقاش فى اعلاء الفكر النقـدى ، فنحن أحوج ما نكون اليه فى شق طريقنا الى المستقبل ·

مارس ١٩٧٤

الهـــــــــوامش

(١) المرجع رقم (٩) ٠ الجزء الأول ص٥٣٤ ، الجزء الثانى ص٦٧٠ ٠

(٢) نعرض الأمر هنا بشىء من التبسيط ٠

(٣) لم يتضح هـذا الا فى القرن التاسع عشر ٠

(٤) هناك مروق بين نظرة اقليدس والنظرة المعاصرة ٠ فمثلا ، لم يكن اقليدس مدركا مشكلة التعريف ٠ كما أنه كان ينظر الى الجمل الهندسية الأولية على انها حقائق ثابتة بذاتها ، بينما ننظـر اليها الآن على أنها فروض ٠

(٥) ينــاير ١٩٧٤ ٠

(٦) لهذه الدعاوى جانب معـاد للديموقراطية ٠ فلماذا الانتخابات والمجالس وما الى ذلك ما دام العلماء على سياسة أمورنا واتخاذ قرارات بشأنها أقـدر ؟

(٧) الاختيار هنا ليس مطلقا ٠ فالمفكر مهما بلغ من الفردية والانعزال أو النبوغ والاستقلال ، مقيد ـ بقدر أو بآخر ـ ببعض جوانب حضارة عصره ، كاللغة مثلا ٠

(٨) ليس معنى هـذا أننـا نرى أن الحوار الفكرى هو العامل الوحيد فى تغيير وجهات النظر ونشر الأفكار والآراء والنظريات ٠ بل يوجد الى جانبه عوامل أخرى ، قـد يكون بعضها أهم منه ٠ أنظر المرجع رقم (٢٣) ٠

(٩) ليس هذا دور ٠ فالمهندس الانشائى الذى يسترشد بمعلوماته

عن عـد أدوار العمارة ووزن مواد البناء وما الى ذلك في تصميم وبناء الأساس ، لا يدور · فهو يبنى الأساس قبل بنـاء الدور الأول ، والأول قبل الثـاني وهكذا · بل ليس أمام المهنـدس الانشائى طريق (معروف) أفضل من هذا الطريق · أيضا ، فى الفكر النظرى ، ليس من الدور فى شىء ، أن نسترشـد بما قـد يكون لدينا من معلومات عن نظرية ما ، فى وضع أوليات لها ·

(١٠) لم نهتم هنا بمشكلة استقلال المعايير بعضها عن البعض الآخر ·

(١١) العلاقة بين التناقض المنطقى والتناقض الجدلى فى حاجـة الى بحث خاص · أنظر الفصلين الأول والسابع من هذه الدراسة · أنظر أيضا المرجع رقم (٢) ، خاصة ص ١٠ ·

(١٢) المرجع رقم (٢٠) ص ٦١ · التشـديد بالأصل ·

(١٣) انظـر مثـلا المرجع رقم (٦) ·

(١٤) تحمل الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب عنوان The Poverty of Philosophy · والترجمة العربية الشائعة لهذا العنوان هى « بؤس الفلسفة » · لكننا نرى أن كلمة « فقر » أو « عقم » هى ترجمة أفضل لكلمة « Poverty » فى هذا المقام ·
والكتاب نقـد لكتاب « نسق التناقضـات الاقتصـادية أو فلسفة البؤس » الذى ألفه برودون ونشره عام ١٨٤٦ ·

(١٥) أنظر المرجع رقم (٢٨) تحت مادة : ماركس ، كارل ·
أنظر أيضا المرجع رقم (٦) حيث يقـول لوفافـر (ص ٨٩) « وفى نوفمبر ١٨٤٢ نفى ماركس فى صحيفته أن يكون شيوعيا · بل أعلن عن عزمه على نشر دراسة تنتقـد الشيوعية · ولاعداد هذه الدراسة انصرف الى قراءة مؤلفات النظريين الفرنسيين » ·

جاء فى ترجمة محمد عيتانى « تشرين الثانى » بدلا من « نوفمبر » • سنسمح لانفسنا باجراء مثل هذه التعديلات دون تنبيه ، عندما ننقل عن ترجمات عربية لا تستخدم اللغة الشائعة فى مصر • فمثلا سنكتب « السوفيتى » بدلا من « السوفياتى » ، و « تونج » بدلا من « تونغ » ، وهكذا • أيضا ، سنجرى التصويبات المطبعية ، أو اللغوية ، دون تنبيه •

(١٦) المرجع رقم (٢٨) • مادة : ماركس ، كارل •

(١٧) المرجع رقم (٦) ص ٢٣٣ •

(١٨) المرجع رقم (١٠) • التشديد فى الاصل •

(١٩) المرجع رقم (٢١) ، الملاحظة الاولى ص ١٠٥ •

(٢٠) أنظر مثلا الملاحظة الرابعة فى المرجع رقم (٢١) صص ١١٢ ــ ١١٣ •

(٢١) المرجع رقم (٢١) ، الملاحظة السادسة ص ١١٩ • التشديد مضاف •

(٢٢) المرجع رقم (٢١) ص ١٧٩ •

(٢٣) مطلع مقال عن « الثورة فى الصين وفى أوربا » • كتبه ماركس • بالانجليزية فى ١٨٥٣/٥/٢٠ ونشر فى جريدة نيويورك دايلى تريبيون فى ١٨٥٣/٦/١٤ • ورد النص فى ص ١٩ من المرجع رقم (٢٤) • استعنا فى الترجمة بالنص الوارد فى ص ١٠ من المرجع رقم (٨) •

(٢٤) يقول هنرى لوفافر ان ماركس فكر فى الانصراف الى كتابة « رأس المال » فى ابريل ١٨٥١ ، وكان يظن أنه سيفرغ منه فى نفس العام • لكنه وجد الامور أصعب مما يظن ، فكان يتوقف عن العمل أحيانا ، ولم ينصرف تمام الانصراف الى الكتابة الا

فى ١٨٥٧ ، عام الازمة الاقتصادية التالية لازمة ١٨٤٨ ٠ كان لتغلب البورجوازية على أزمة ١٨٤٨ أثر على ادراك ماركس أن النظام الاجتماعى أعتد مما يتصور ٠ ولما لم يستطع حل المشكلات المتعلقة به بين ١٨٥٠ ، ١٨٥٧ أدرك أنه بحاجة الى **منهج** جديد ٠ أنظر المرجع رقم (٦) ص ٢٣٢ وما حولها ٠

(٢٥) المرجع رقم (٢٥) ص ١٠٠ ٠ التشديد فى الاصل ٠

(٢٦) المرجع رقم (٢٥) ص ١٠٨ ٠

(٢٧) ادراكنا أن كارل ماركس قد تطور فكريا (كغيره من البشر) وأن تطوره هذا منعكس فى كتاباته يدعونا الى أن نتمعن أكثر فى قراءته ، وأن نتعامل بحذر أكثر مع المقتطفات المأخوذة من كتاباته واقواله ٠

(٢٨) لعله لو كان قد شرع فعلا فى كتابتها لوجد أنها ستحتاج الى أكثر من صفحتين أو ثلاثة ٠ أيضا يقول لوفافر (المرجع رقم (٦) ص ٢٤١ وما حولها) ان ماركس قد ترك نصا ، يكاد أن يكون مجهولا ، يخطط فيه لمؤلف لم يكتبه ، كان يزمع أن يربط فيه الديالكتيك بالطبيعة والمجتمع والتاريخ والفن ٠

(٢٩) عام وفاة انجلز ٠

(٣٠) هذا هو العنوان الذى اشتهر به الكتاب ٠ أما العنوان الأصلى الذى وضعه انجلز فهو « ثورة السيد يوجين دوهرنج فى العلم » ٠ أنظر المرجع رقم (٢٨) تحت مادة : ضد دوهرنج ٠

(٣١) المرجع رقم (١٢) ص ١٠ ٠

(٣٢) المرجع رقم (١٢) ص ١٤ ٠

(٣٣) المرجع رقم (١٢) صص ١٣ ــ ١٤ ٠

(٣٤) كارل ماركس ، المخطوطة الثالثة : نقد ديالكتيك هيجل وفلسفته العامة ٠ المرجع رقم (١٠) ص ٢٠٠ ٠

(٣٥) المرجع السابق مباشرة ، ص ١٦٢ ٠

(٣٦) كارل ماركس ، اسهام فى نقد فلسفة الحق لهيجل ــ مقدمة ٠ المرجع رقم (١٠) ص ٤٤ ٠

(٣٧) كارل ماركس ، المسألة اليهودية ٠ المرجع رقم (١٠) ص ١٠ ٠

(٣٨) كارل ماركس ، المخطوطة الاولى : العمل المغترب ٠ المرجع رقم (١٠) ص ١٣١ ٠

(٣٩) كارل ماركس ، المخطوطة الثالثة : الملكية الخاصة والشيوعية ٠ المرجع رقم (١٠) ص ١٥٣ ٠

(٤٠) المرجع المذكور فى الهامش رقم (٣٨) ٠ ص ١٢٥ ٠

(٤١) المرجع السابق مباشرة ٠ ص ١٢٨ ٠

(٤٢) المرجع السابق مباشرة ٠ ص ١٢٧ ٠ التشديد فى الاصل ٠

(٤٣) جزء اقتطفه ايرك فروم **Eaich Fromm** (من كتاب : كارل ماركس ، رأس المال ــ المجلد الثالث) ، فى مقدمته للمرجع رقم (١٠) ص **ii**.

(٤٤) المرجع المذكور فى الهامش رقم (٣٩) ص ١٦٧ ٠

(٤٥) المرجع رقم (٢٠) ص ٦٠ ٠

(٤٦) المرجع رقم (٢٢) ص ١٥ ٠

(٤٧) المرجع رقم (١١) صص ٢٣ ــ ٢٤ ٠

(٤٨) المرجع رقم (١٢) صص ١٧ ــ ١٨ ٠

(٤٩) لا يكفى بحث هذا العقم على المستوى الفكرى ٠ بل يجب أن يمتد البحث الى الظروف الاجتماعية والتاريخية التى حدث فيها هذا العقم ، والطبقات والجماعات والفئات المستفيدة منه ٠

(٥٠) جزء مقتطف فى المرجع رقم (٢٩) ص ١٣٠ من المرجع رقم (١٦) صص ٣٥٩ ــ ٣٦٣ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٧) ص ٢٦٣ ٠

(٥١) أى التناقض من وجهة نظر المنطق الشكلى أو الصورى أو الرمزى أو الرياضى ، وكلها تستخدم الآن بمعنى واحد ٠ من الممكن القول بأن المنطق الرمزى أو الرياضى هو الطور المعاصر للمنطق الشكلى أو الصورى ٠

(٥٢) أنظر المرجع رقم (٢٨) تحت مادة : تناقض ٠ أنظر أيضا المرجع رقم (٥) ص ٣٢٢ ٠

(٥٣) المرجع رقم (٧) صص ١٣٠ ــ ١٣١ ٠

(٥٤) المرجع رقم (١٣) ص ٢٨٤ ٠

(٥٥) المرجع رقم (١٣) صص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٥٦) المرجع رقم (٧) ص ١٣١ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٥٧) المرجع رقم (١٣) ص ٢٨٦ ٠

(٥٨) كما قلنا فى الهامش (٤٩) ، لا يكفى بحث هذه الامور على المستوى الفكرى ٠ ما هى الظروف الاجتماعية والتاريخية التى أدت الى هذا التحريم ؟ من الذى استفاد منه ؟ ٠

(٥٩) المرجع رقم (٧) صص ١٥٣ ــ ١٥٤ ، ١٧٠ ــ ١٧٣ ٠ انظر أيضا المرجع رقم (٥) ص ٣٢١ ٠ حيث يقول المؤلفون : « وقد كتب لينين يقول ان التناقض المنطقى « لا يجب أن يوجد لدى توفر

التفكير المنطقى السليم طبعا ، لا فى التحليل الاقتصادى ولا فى التحليل السياسى» » • والمرجع الذى أرجع اليه المؤلفون هو ، أ• لينين ـ المؤلفات • الجزء ٢٣ الصفحة ٢٩ • لكن المؤلفين تجاهلوا ما أوردناه أو أشرنا اليه هنا من أقوال انجلز ولينين المتعلقة بمشكلة التناقض الديالكتيكى والتناقض المنطقى •

(٦٠) انظر مقال ماو تسى تونج ، فى التناقض ـ البند الثانى : عمومية التناقض • فى المرجع رقم (٣٢) ص ٣١ •

(٦١) المرجع رقم (١٤) المجلد ٢ ص ٦٧ •

(٦٢) المرجع رقم (١٢) صص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

(٦٣) المرجع رقم (١٣) ص ٣٦٠ • التشديد فى الاصل •

(٦٤) هذا الاساس قائم على نظرية الفئات Set Theory • وقد اكتشف تناقض منطقى فى هذه النظرية عام ١٨٩٧ ، ثم أعيد بناؤها فى أوائل قرننا هذا • ولدينا الآن بناء لهذه النظرية وللتفاضل والتكامل على أساس من المنطق الرمزى • وليس فى هذا البناء أى تناقض منطقى معروف •

(٦٥) المرجع رقم (١٣) ص ٣٥٣ •

(٦٦) المرجع رقم (١٣) ص ٤٥٠ • أيضا ، للاطلاع على تقويم انجلز لمدى استيعابه لعلوم عصره انظر المرجع رقم (١٢) صص ١١ ـ ١٢ ، ١٥ ـ ١٦ •

(٦٧) المرجع رقم (١٣) صص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ • التشديد مضاف •

(٦٨) المرجع رقم (١٢) صص ١٦١ ـ ١٦٢ •

(٦٩) جمع « كل » • اضطررنا الى استحداث هذا الجمع غير القياسى لنترجم الكلمة الانجليزية « Wholes » •

(٧٠) المرجع رقم (١٥) ٠

(٧١) المرجع رقم (١١) صص ١١ ـ ١٢ ٠

(٧٢) المرجع رقم (١١) ص ٣٩ ٠ التشـديد فى الاصل ٠

(٧٣) المرجع رقم (١١) ص ٣٦ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٧٤) المرجع رقم (١١) صص ٣٩ ـ ٤٠ ٠

(٧٥) المرجع رقم (١١) ص ١٤ ٠

(٧٦) المرجع رقم (١١) ص ٤٢ ٠

(٧٧) المرجع رقم (١١) ص ١٨ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٧٨) المرجع رقم (١١) صص ٢٣ ـ ٢٤ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٧٩) المرجع رقم (١١) ص ٢٥ ٠

(٨٠) المرجع رقم (١١) ص ٥٤ ٠ ما بين القوسين مضاف ٠

(٨١) كما قلنا سابقا ، ما حـدث على المسـتوى الفـكرى فى العصر الستالينى (أو غيره) لا يجوز أن يقتصر بحثـه على المستوى الفكرى ٠ علينا أن نربطه بالظروف التاريخيـة والحضـارية والاجتماعية والطبقيـة التى حـدث فيها ٠

(٨٢) هكذا كانت تسمى الهنـد فى ذلك الوقت ٠

(٨٣) مقتطف فى المرجع رقم (٢٤) ص ٢٩٢ من كتاب كارل ماركس ، رأس المـال ـ المجلد الاول ـ الفصل ٣١ ٠ استعنا فى الترجمـة بالمرجع رقم (٨) ص ١٥١ ٠

(٨٤) خاتمة مقال عن تجـارة الافيـون كتبـه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٨/٩/٣ ونشر فى النيـويورك دايـلى تريبيـون فى ١٨٥٨/٩/٢٥ ٠ جاء بالمرجع رقم (٢٤) ص ٢٢٠ ٠ اسـتعنا

فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) صص ١٤١ ــ ١٤٢ ٠

(٨٥) الدرزينــه : الوســته ٠

(٨٦) من مقال « الانتفاضة الهندية » ٠ كتبــه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٧/٩/٤ ونشر فى النيــويورك دايــلى تريبيــون فى ١٨٥٧/٩/١٦ ٠ المرجع رقم (٨) صص ١٠٢ ــ ١٠٣ ٠

(٨٧) من مقال « الحكم البريطانى فى الهند » كتبه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٣/٦/١٠ ونشر فى النيــويورك دايلى تريبيـــون فى ١٨٥٣/٦/٢٥ ٠ المرجع رقم (٢٤) صص ٣٧ ــ ٣٨ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٢٦ ٠

(٨٨) من مقال « مسألة الحرب ــ أعمال البرلمــان ــ الهنــد » كتبــه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٣/٧/١٩ ونشر فى النيويورك دايلى تريبيون فى ١٨٥٣/٨/٥ ٠ المرجع رقم (٢٤) صص ٧٧ ــ ٧٨ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٥٨ ٠

(٨٩) من مقال «النتائج المقبلة للحكم البريطانى فى الهنــــد » كتبــه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٣/٧/٢٢ ونشر فى النيويورك دايلى تريبيون فى ١٨٥٣/٨/٨ ٠ المرجع رقم (٢٤) ص ٨٣ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٦٦ ٠

(٩٠) المقــال المذكور فى الهامش (٨٩) ٠ المرجع رقم (٢٤) ص ٨٢ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٦٤ ٠

(٩١) المقــال المذكور فى الهامش (٨٩) ٠ المرجع رقم (٢٤) ص ٨٥ ٠ استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٦٩ ٠

(٩٢) المقــال المذكور فى الهامش (٨٩) ٠ المرجع رقم (٢٤) ص ٨٢ ٠ استعنا فى الترجمــــة بالمرجــع رقم (٨) ص ٦٥ ٠ التشـــــدد فى الاصــــل ٠

(٩٣) المقال المذكور فى الهامش (٨٧) · المرجع رقم (٢٤) ص ٤٠ ·
استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٢٩ ·

(٩٤) المقال المذكور فى الهامش (٨٧) · المرجع رقم (٢٤) ص ٤٠ ·
استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) صص ٢٩ ـ ٣٠ ·

(٩٥) المقال المذكور فى الهامش (٨٧) · المرجع رقم (٢٤) ص ٤١ ·
استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٣١ ·

(٩٦) المقال المذكور فى الهامش (٢٣) · المرجع رقم (٢٤) ص ٢١ ·
استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٤ ·

(٩٧) المقال المذكور فى الهامش (٢٣) · المرجع رقم (٢٤) ص ٢٠ ·
استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٢ ·

(٩٨) المرجع رقم (٢٤) ص ٣٤٠ · استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) صص ١٩١ ـ ١٩٢ ·

(٩٩) المرجع رقم (٢٤) ص ٣٤٠ · استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٩٢ ·

(١٠٠) المقال المذكور فى الهامش (٨٩) · المرجع رقم (٢٤) صص ٨٥ ـ ٨٦ · استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) صص ٦٩ ـ ٧٠ · ما بين القوسين مضاف ·

(١٠١) من مقال « التحقيق فى أعمال التعذيب فى الهند » كتبه ماركس بالانجليزية فى ١٨٥٧/٨/٢٨ ونشر فى النيويورك دايلى تريبيون فى ١٨٥٧/٩/١٧ · المرجع رقم (٢٤) ص ١٦٧ · استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ٩٩ ·

(١٠٢) المرجع رقم (٢٤) ص ٣٢٥ · استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٨٢ · التشديد فى الاصل ·

(١٠٣) المرجع رقم (٢٤) ص ٣٢٧ • استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٨٤ •

(١٠٤) للأممية الأولى •

(١٠٥) من مقال « مراسلة سرية » كتبه ماركس بالألمانية نحو ١٨٧٠/٣/٢٨ ونشر لاول مرة فى مجلة دى نوى زايت المجلد ٢ العدد ١٥ عام ١٩٠٢ • المرجع رقم (٢٤) ص ٢٥٩ • استعنا فى الترجمة بالمرجع (٨) ص ١٦٩ • التشديد فى الاصل •

(١٠٦) المرجع رقم (٢٤) صص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ • استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) ص ١٩١ • التشديد فى الاصل ، ما بين القوسين مضاف •

(١٠٧) المرجع رقم (٢٤) ص ٣٤١ • استعنا فى الترجمة بالمرجع رقم (٨) صص ١٩٣ ـ ١٩٤ • التشديد فى الاصل •

(١٠٨) المرجع رقم (٣) صص ٧٨ ـ ٧٩ • التشديد مضاف •

(١٠٩) المرجع رقم (٣) ص ٨٥ •

(١١٠) المرجع رقم (٣) ص ٨٦ •

(١١١) لينين ، الثورة الاشتراكية وحق الأمم فى تقرير المصير • المرجع رقم (١٧) ص ١٥٨ • التشديد فى الاصل •

(١١٢) جزء من أقوال لينين اقتطفه ستالين فى المرجع رقم (٣) ص ٨٣ • المرجع الذى يعطيه ستالين هو : لينين ، المؤلفات الكاملة « خلاصة المناقشة حول حق الأمم فى تقرير مصيرها بنفسها » • المجلد ١٩ صص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ • الطبعة الروسية •

(١١٣) المرجع رقم (٣) ص ٨٤ • التشديد فى الاصل •

(١١٤) لينين ، حق الأمم فى تقرير المصير · المرجع رقم (١٨) ، الجزء الاول ص ٦٠٥ · التشديد مضاف ·

(١١٥) المرجع رقم (١٩) ص ٥٥ · ما بين القوسين [،] مضـاف ·

(١١٦) المرجع رقم (٣) ص ٦ ·

(١١٧) المرجع رقم (١٨) ، الجزء الاول ص ٦٣٤ ·

(١١٨) المرجع رقم (٢٧) ·

(١١٩) المرجع رقم (٢٧) ص ٣٠١ ·

(١٢٠) المرجع رقم (٤) ·

(١٢١) المرجع رقم (٤) ص ٢٣ ·

(١٢٢) المرجع رقم (٤) ص ٢٤ · التشديد فى الاصل ·
قـد يفهم من النص أنه مسموح بأحزاب لا تشاطر الحزب الشيوعى القيادة · لكن لا يوجـد فى السياق ما يبرر هـذا الفهم · بل ان السياق كله يؤكد أن الحزب الوحيد المسموح به هو الحزب الشيوعى ·

(١٢٣) المرجع رقم (٤) صص ٣٠ ـ ٣٢ ·

(١٢٤) المرجع رقم (٤) ص ٣٢ ·

(١٢٥) المرجع رقم (٤) ص ٣٣ ·

(١٢٦) المرجع رقم (٣) ص ١٢١ ·

(١٢٧) المرجع رقم (٣) ص ٥٧ · التشديد فى الاصل ·

(١٢٨) المرجع رقم (٤) ص ٣٥ ·

(١٢٩) المرجع رقم (٣) ص ٤٩ ·

(١٣٠) المرجع رقم (٣) ص ٥٠ .

(١٣١) المرجع رقم (٤) ص ٢٧ .

(١٣٢) المرجع رقم (٣) ص ١٢٣ .

(١٣٣) المرجع رقم (٣) ص ١١٤ .

(١٣٤) المرجع رقم (٤) صص ٤٥ ــ ٤٦ .

(١٣٥) المرجع رقم (٤) ص ٥٠ .

(١٣٦) المرجع رقم (٤) ص ٤٣ .

(١٣٧) المرجع رقم (٤) ص ٣٩ .

(١٣٨) المرجع رقم (٤) ص ٣٨ .

(١٣٩) المرجع رقم (٣) ص ١١٣ .

(١٤٠) المرجع رقم (٣) ص ١٢١ .

(١٤١) المرجع رقم (٤) ص ٤٤ . التشديد فى الاصل . يقول مستالين ان خط التشديد الثانى منه .

(١٤٢) المرجع رقم (٣) صص ١٢٦ ــ ١٢٧ .

(١٤٣) المرجع رقم (٣) صص ١٢٧ ــ ١٢٨ .

(١٤٤) المرجع رقم (٣) ص ١١٥ .

(١٤٥) المرجع رقم (٣) ص ١٢٤ .

(١٤٦) المرجع رقم (٤) ص ٢٨ .

(١٤٧) المرجع رقم (٣) ص ٥٦ .

(١٤٨) المرجع رقم (٣٣) صص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(١٤٩) المرجع رقم (٣٣) صص ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(١٥٠) المرجع رقم (٣٣) ص ١٣١ ٠

(١٥١) المرجع رقم (٣٣) ص ١٢٦ ٠

(١٥٢) المرجع رقم (٣٣) صص ١١٨ ـ ١١٩ ٠

(١٥٣) المرجع رقم (٣٣) ص ١١٨ ٠

(١٥٤) المرجع رقم (٣٣) صص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

(١٥٥) المرجع رقم (٣٣) ص ٢٨٥ ٠

(١٥٦) هو الوثيقة الثالثة من الوثائق الملحقة بالمرجع رقم (١) ٠ جاء في تقديم المؤلف لهذه الوثيقة أنها تعتبر مصاغة تحت الاشراف الشخصي لمار تسي تونج ، الامر الذي يعني أن أكثرها من تأليفه ٠

(١٥٧) المرجع رقم (١) صص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ٠ التشديد في الاصل ، ما بين القوسين مضاف ٠

(١٥٨) الوثيقة الثالثة الملحقة بالمرجع رقم (١) ص ٢٩٠ ٠

(١٥٩) الوثيقة الثالثة الملحقة بالمرجع رقم (١) ص ٢٩١ ٠

(١٦٠) المرجع رقم (١) ص ٢٩٣ ٠

(١٦١) المرجع رقم (١) صص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ٠ التشديد في الاصل ٠

(١٦٢) أنظر المراجع : رقم (٣٠) ورقم (٣١) ورقم (٢٦) ٠

المجلة الوارد ذكرها بهذه المراجع مجلة أمريكية تصدر بالانجليزية وتضم ترجمات لبعض أعمال الفلاسفة السوفيت المنشورة في مختلف المجلات الفلسفية السوفيتية ٠

(١٦٣) المرجع رقم (١٢) صص ١٦٨ ـ ١٦٩ ٠

(١٦٤) المرجع رقم (١٥) ص ٢ ٠

(١٦٥) نحو سـنة ١٩٦٠ ٠

(١٦٦) **Cybernetics.**

(١٦٧) المرجع رقم (١٥) ص ٣ ٠

(١٦٨) فى الاصل توجد اشارة الى ملاحظة هامشية يبين فيها انجلز مصدره ، وهو : مذكرات لخدمة تاريخ فرنسا ، عهد نابليون ٠
Mémoires pour servir à l'histoire de France, sous Napoléon
المجلد الاول ص ٢٦٢ ، باريس ١٨٢٣ ٠

(١٦٩) المرجع رقم (١٢) ص ١٥٤ ٠

ثبت المراجـــع

مراجع باللغـة العربيـة :

(١) جان دوبيــه
تاريخ الثورة الثقافية البروليتارية فى الصين (١٩٦٥ ـ ١٩٦٩) ـ ترجمة طلال الحسينى ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ الطبعـة الأولى ـ ابريل ١٩٧١ ٠

(٢) فـؤاد زكريا
هيجـل فى ميزان النقـد ـ مجـلة الفكـر المعاصر العـدد ٦٧ سبتمبر ١٩٧٠ ٠

(٣) جوزيف ستالين
أسس اللينينيـة ـ دار الفـارابى ـ بـيروت ـ الطبعـة الثالثة ـ ١٩٥٧ ٠

(٤) جوزيف ستالين
حول مسائل اللينينية ـ المكتبـة الاشتراكية ـ دار دمشـق للطبـاعة والنشر ٠ (انتهى سـتالين من هـذا الكتـاب فى ١٩٢٦/١/٢٥) ٠

(٥) ف٠ كونستانتينوف وآخرون
المـادية الديالكتيكية ـ ترجمـة فؤاد مرعى وآخـرون ـ دار الجماهير ـ دمشق ٠

(٦) هنرى لوفافر
كارل ماركس ـ ترجمة محمد عيتانى ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٧٢ .

(٧) فلاديمير لينين
دفاتر عن الديالكتيك ـ ترجمه وقدم له الياس.مرقص ـ دار الحقيقة ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ـ نوفمبر ١٩٧١ .

(٨) كارل ماركس وفريدريك انجلز
فى الاستعمار ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٧١ .

(٩) ابراهيم مصطفى وآخرون
المعجم الوسيط ـ اصدار مجمع اللغة العربية بمصر ـ الجزء الاول ـ ١٩٦٠ ، والجزء الثانى ـ ١٩٦١ .

مراجع باللغــة الانجليزية :

(10) T. B. Bottomore - Translator and Editor.
Karl Marx Early Writings - Mc Graw-Hill Paperback Edition 1964.

(11) F. Engles
Ludwig Feuerbach And The End of The Classical German Philosophy-Progress Publishers - Moscow 1969.

(12) F. Engles
Anti-Duhring - Progress Publishers - Moscow 1969 .

(13) F. Engles
Dialectics of Nature - Foreign Languages Publishing House-Moscow 1954.

(14) G. Hegel
Science Of Logic-W. Johnston and L. Struthers (translator)-Muirhead Library of Philosophy - London : George Allen & Unwin LTD. - New York : Humanities Press Inc. 1966.

(15) Oskar Lange
Wholes And Parts, A General Theory of System Behaviour-Pergamon Press and PWN-Polish Scientific Publishers 1965.

(16) V. Lenin
Philosophical Notebooks-Foreign Language Publishing House-Moscow 1961.

(17 V. Lenin
Selected Works - Progress Publishers - Moscow 1968.

(18) V. Lenin
Selected Works In Three Volumes - Progress Publishers - Moscow 1967.

(19) Rosa Luxemburg
The Russian Revolution and Leninism or Marxim?-Ann Arbor Paperbacks - The University of Michigan Press 1967.

(20) K. Marx
Theses On Feuerbacn - Appendex to (11)

(21) K. Marx
The Poverty Of Philosopty - International Publishers - New York 1963.

(22) K. Marx
The 18th Brumaire Of Louis Bonaparte - International Publishers - New York 1967.

(23) K. Marx and F. Engles
The German Ideology International Publishers - New York 1968.

(24) K. Marx and F Engles
On Colonialism Progress Publishers - Moscow 1968

(25) K. Marx and F. Engles
Selected Correspondence-Progress Publishers-Moscow 1965.

(26) I. S. Narski
On The Problem Of Contradiction In Dialectical Logic-Soviet Studies In Philosophy - Vol. 6 No. 4 Spring 1968.

(27) P. N. Ponomarev et al.
A Short History Of The Communist Party Of The Soviet Union - Progress Publishers - Moscow 1970.

(28) M. Rosenthal and P. Yudin - Editors of the Russian original,

R. Dixon and M. Saifulin - Editors of the English translation. A Dictionary of Philosophy - Progress Publishers 1967.

(29) H. Selsam and H. Martel - Editors
Reader In Marxist Philosophy - International Publishers - New York 1964.

(30) Several Authors
Soveit Studies In Philosophy - Vol. 5 No. 1 Summer 1966.

(31) S. B. Tsereteli
On The Concepts Of, Dialectical Logic - Soviet Studies In Philosophy - Vol. 5 No. 2 Fall 1966.

(32) Mao Tse-Tung
Four Essays On Philosophy - Foreign Languages Press - Peking 1966.

(33) Mao Tse-Tung
Quotations From Chairman Mao Tse-Tung - Foreign Languages Press - Peking 1966.

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٨/٥٢٨٥ م

الترقيم الـدولى

٩ ـ ٧٥ ـ ٧٢٥٧ ـ ٩٧٧



مطبعـة دار نشر الثقـافة

٢١ شارع كامل صـدقى بالفجـالة

ت : ٩١٦٠٧٦

هـــذا الكتـــاب

يناقش هـذا الكتاب احدى عشرة قضية ، فى الفلسفة والماركسية ، هى :

- لمـاذا الفلسفة ؟
- لمـاذا فلسفة ما ، بعينها ؟
- ماذا نقصد بالمـاركسية ؟
- ماركس ، والمـاركسية ٠
- انجلز ، والفلسفة الماركسية ٠
- المـاركسية ، والانسانية ٠
- الديالكتيك ، والتنـاقض ٠
- المـاركسية ، والصيرورة ٠
- الاستعمار وحق تقرير المصير ٠
- الحـزب والشعب ٠
- الكم ، والكيف ، والمنظومة ٠

والكتاب يهتم بصياغة الأسئلة وبلورة المشـكلات ، الى جانب اهتمامه باقتـراح الحـــلول ، ومحاولته تقديم الاجابات ٠

انه دعوة الى التفكير والنقاش ٠